المقـــالة الثالثـــة

من مقالات ومواعظ يوحنا فم الذهب

وهى من جملة أقواله لمـا كان مكدودا فى المنفى

فى المتشككين لعدم اقتدارهم على استطلاع كنه حقيقة الحوادث الجارية أو التى فوق العـادة

مقـــدمة

قد علمنا أن الأطباء اذا اعتمدوا أن يداووا أناسا مصابين بالحمى أو سواها من الأمراض يطلبون أولا مشاهدة المريض لأنهم لا يمكنهم ولا يتيسر لهم أن يوصلوا اليه نفعا بأدويتهم اذا كان بعيدا وهذا الأمر تقتضيه صنعة الطب وأمراض الأجسام ٠

لـكن نحـن اذا أردنا مداواة واحـد أو أكثر من المشككين أو جميع المسكونة كما هو مرغوبنا وجل مبتغانا فلسنا نحتاج ما احتاجه أولئـك ٠ فلا نلتمس أن ندخل الى منزل أحد السقماء ولا أن نعرف كيف حاله ٠ ولا أن نشاهده بذاتنـا ولا نستصحب معنا آلات المعالجة ولا نسبب نفقات ولا نكلف المريض الى ابتياع أدوية ٠

ومع كل ذلك قد يكون أنهم لا يعرفوننا وربما كانوا مشتتين فى آفاق المسكونة بين طوائف الأعاجم أو كانوا فى الفقر والمسكنة حتى أنهم فى عوز الى القوت الضرورى فما فى كل ذلك مانع لنـا أو تعويق عن مداواتنـا لهم لـكننا ونحن فى محل واحد نطرد هـذا المرض بلا آلات معالجة ولا أدوية ولا أطعمة ولا أشربة ولا أموال ولا أسفار طويلة على المرضى وعلينا ٠

وان سألت وكيف يتم ذلك وبأية حال ـ أجبتك باصـلاحنا من كلامنا الدواء الصائر للمرضى بكل الأمراض دواء أفضل من الأنواع المذكورة آنفا للمعالجة بأسرها لأن هذا الدواء يغذى أكثر من الخبز وينجح أوفر من الدواء

ويكون أقوى من كى النار ولا يحدث وجعا • فيحجز من الأفكار الخبيثة مجاريها المنتنة ويقطع الأعضاء المتعفنة أرهف من قطع الحديد بدون وجع •

وهو يفعل ذلك بدون انفاق مال ولو يسير ولا يصده فقر مهما كان مدقعا فهذا الدواء اذا ركبناه أرسلناه الى الناس أجمعين •

فينالون الشفاء ان أصغوا فقط اليه تمام الاصغاء باخلاص النية والمحافظة عليه •

البـــاب الأول

فى أن يلزمنا ضرورة أن نذكر العلة التى منها تتولد الشكوك

اذا كانت معرفة المريض سبب مرضه فى الأمراض الجسدانية من شأنها أن تفيده فائدة ليست بقليلة ان لم تقل تخلصه من مرضه بالكلية لأنه اذا عرف السبب فانه بعد تخلصه من المرض الذى استحوذ عليه لا يعود يسقط فيه فيما بعد • فاذا عرف السبب الذى أوقعه فى المرض احترز منه لئلا يسقط •

فهلم بنا نلزم الذين قد مرضوا هذه الأمراض وأمثالها أن يحترزوا لأنفسهم منها اذ نعرفهم من أين يكون فيهم مرض التشكيك المذموم لأنهم عرفوا هذا المرض وابتغوا أن يحترزوا منه أبلغ الاحتراز فيستخلصون من هذا المرض ومن سواه فى الحاضر والمستقبل وذلك لأن من طبع هذا الدواء أن يشفى المرض الحاضر ويحمى من أمراض أخرى تعرض • لأن العوارض التى تشكك الضعيف ليست هى واحدة ولا اثنتين ولا ثلاث لكنها كثيرة فى حياتنا الحاضرة فى الحالة هذه يجب على الذين قد صيدوا أن يعرفوا ما نقوله ويحفظوه ليمتقوا من هذه كلها على ماذكرت آنفا ان شاءوا • واننا سنصلح هذا الدواء من الكتب الالهية ومن الحوادث التى عرضت لنا فى عمرنا حتى يصير استعماله عاما حتى عند الذين لايصغون الى الكتب الالهية ان أرادوا ولقد قلت مرارا أن هذا الشفاء لايتهيأ بالزام وغصب للذين لايريدونه ولا يقتبلون الوحى الالهى واكرر ذلك الآن هنا واقول ان الأجدر بهم أن يقبلوا الوحى الالهى أكثر من اقتبالهم البرهان من نفس الفعل لأنه يجب علينا أن نصدق أحكام

الله عز وجل ونعتقدها أهلا للتصديق أكثر من الأشياء المنظورة ولهذا السبب أصعب العقوبة مهيأ لهؤلاء اذا لم يصطلحوا لأنهم فازوا بالكتب وما استفادوا منها نوع منفعة هذا تأثيرها فلكيلا يصيبنا عـذا المصاب هات لنمارس مابه الصالح لنا بعد أن نصف علة المرض ·

البـاب الثـانى

فى أن البحث عن حكمة الله الممتنع وصفها والتنقيب عليها مملوءا خطرا وهوسا

فان استخبرت عن علة هذا المرض الجسيم أجبتك هو العزم البـاحث المنقب ورغبة الواحد منا أن يعرف جميع علل الحوادث كافة ومحاولتـه أن يبحث عن عناية الله وسياسته المحتجز ادراكهـا وأن ينقب عليهـا بافراط وقاحته · على أنه من منا احكم من بولس الرسول أفما كان هذا الفـاضل اناء مصطفى أو ما استمد من الروح القدس نعمة غزيرة لاتوصف أو ماكان المسيح متكلما فيـه أو ماخاطب الهنـا فى الفاظ يحتجز التكلم بها أو ماسمع وحده كلمات ما يمكن أن يقولها أحد من الناس أو ما خطف الى الجنـة أو ما أصعد الى السماء الثالثة · أو طاف البر والبحر أو مااستمال العجم الى القبول منه اذ تفلسف لهم · أو ما حوى أفعال الروح القدس الكثيرة المتعددة أو ما أصلح جموعا كثيرة من الناس وثقف مدنا عديدة · أو ما جعل الهنا المسكونة كلها فى يديه وحملها به ولـكن مع ذلك اسمع هذا الرجل الغزير فضله والسامى قـدره ومحله الحكيم الروحانى المقتدر هذا الاقتدار الـكلى المتمتع بهذه المواهب الجليلة كيف انذهل وكيف دهش وكيف ولى مسرعا لمـا حصل فى البحث عن عناية الله · وليس عن عنايته كلها بل اندفع الى جزء يسير منها فما تصفح كيفية عناية الله بالملائكة ورؤساء الملائكة والكاروبيم والسارافيم والقوات الأخرى غير المنظورة ولا كيفية عنايته تعالى وسياسته للبرايا العـادمة النطق والأشجار والنبـاتات والبـذور والأهوية والرياح والفصول والأوقات والعيون والأنهار ولاكيف يعتنى بالولادة بذات طبيعتها وبنمو براياه وطعامها ولا فى سائر أفعاله التى من هذا القبيل بل تناول جزءا يسيرا من سياسته لليهود والوثنيين فاستغرق كلامه عند تعليمه كيف دعا الله الذين من الأمم وكيف اجتذب الذين من اليهود وكيف اكتسب الخلاص كلا الفريقين

برحمته تعـالى فانه اذا رأى لجة واسعة عميقة قـد انفتحت لديه وأراد أن يطلع من عمق قريب على عنايته هذه في هذه الجهة بانتمما يغتاص وصفه من وصف سياسته تعالى حائرا كمن فى ظلام دامس واستعجب من حكمة الله وعنايته وامتناع وصفها وتعذر عبورها والغوص فيها فوهى جلده ودهش منها وطفر مسرعا وأبدى أصوات الهتاف بحيرة وذهول قائلا « يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه » (رو ١١ : ٣٣) ثم أوضح أنه عرف عمقها ولا يقـدر على معرفة كميته بقوله « ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء » (رو ١١ : ٣٣) .

فقال انها لا تدرك ، لا بل لا يستقصى عنهـا فضـلا عن ادراكها . وأن البحث عن مبادىء هذه السياسات واثار هذه الأحكام ليس فى اسـتطاعة أحدنا فضــلا عن البلوغ الى غايتهـا فبعد أن قال « ما أبعـد طرقـه عن الاستقصاء » قضى عليه الدهش والعجب أن يمجد الله لذلك فقال « لأن من عرف فكر الرب أو من صـار له مشيرا أو من سبق فأعطاه فيكافأ » (رو ١١ : ٣٤و٣٥) ويستفاد من قوله أن الله عين الأشياء الصالحة وعلتهـا ليس يحتاج الى شريك ولا الى مشير فلا حاجـة به الى اقتبـاس معرفة أو فهم من أحد ليجترح بها العجائب التى يجترحهـا كلهـا لـكنه هو بدء كل الصالحات وعلتها وأصلها وينبوعها وهو خالق البرايا كلها ومبديهـا من العدم الى الوجود وهو ضابطها بعد ابداعه اياها ويعتنى بهـا طول مدى دوامها على نحو ما يشاء فقد قال بعد ما ذكر آنفا « لأن منـه وبه وله كل الأشياء » (رو ١١ : ٣٦) فهو اذا علة الموجودات ومبدعها وأردف قـوله بقوله « له المجد الى الأبد آمين » (رو ١١ : ٣٦) .

ثم اذ ذكر موهبته الواصلة الينا قال « شكرا لله على عطيته التى لا يعبر عنها » (٢ كو ٩ : ١٥) وعند ذكر سلامه قال أنه فوق كل عقل فضلا عن كونه لا يوصف ولا يخبر به « وسلام الله الذى يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم » (فى ٤ : ٧) فان كان عمق غناه وحكمته وعلمه لا يعرف وأحكامه لاتستقصى وطرقه لا تدرك وموهبته لا تنعت وسلامه يفوق كل عقل ليس عقلى وعقلك وعقل فلان وفلان ولا عقل بطرس وبولس بل عقول الملائكة ورؤساء الملائكة والقوات العلوية كلها فأى اعتذار لك قل لى أى عضـو تنال اذا استعملت جنونا وغتوا كهذا فتوخيت الوصول الى الأشـياء التى لا يستقصى أثرهـا

وطالبت عناية الله كلها بحجج عما تفعله ؟ فان كان بولس الحائز معرفة جسيمة بهذا المقدار والحاوى دالة عظيمة والممتلىء مواهب غزيرة افرج لهذا البحث وانحرف عنه · وأمر عجيب أنه لم يقدر أن يجده وأعجب من ذلك أنه ما استطاع أن يبحث عن مبادئه اذا كان هذا البحث غير ممكن أيضا · أفما يكون من يسعى فى طريق مضادة لطريق ذلك الفضل مصابا بالجنون الشديد وأحق الناس كلهم بأن يرثى له ·

وهذا الرسول العظيم الالهى قد كتب فى رسالته الى أهل كورنثوس فى وصف المعرفة فبين كيف أننا وان كنا تعلمنا علوما كثيرة فما حوينا من المعرفة مقدارا يسيرا حقيرا جدا فقال غير ماتقدم ما نصه « فان كان أحد يظن انه يعرف شيئا فانه لم يعرف شيئا بعد كما يجب أن يعرف » (١ كو ٨ : ٢) ثم أوضح انه ينقصنا ويعوزنا قسم عظيم من المعرفة وان أكثرها مخزون فى الزمان المنتظر كونه وانما خولنا الآن جزءا يسيرا قال « لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض » (١ كو ١٣ : ٩ ، ١٠) وما وقف عند هذا الحد فى قوله لكنه جعل هذا التحديد بينا بأمثلة أوردها لايثاره أن يبين الحد الأوسط فيما بين هذه المعرفة وفيما بين تلك المعرفة وان القسم الناقص عظيم قال « لما كنت طفلا كطفل كنت أتكلم وكطفل كنت أفطن وكطفل كنت أفتكر ولكن لما صرت رجلا أبطلت ما للطفل فاننا ننظر الآن فى مرآة فى لغز لكن حينئذ وجها لوجه » (١ كو ١٣:١١ ، ١٢) أعرفت الحد الوسط فهو ما بين الطفل والرجل الكامل وبين من ينظر بمرآة وفى رمز غامض · وبين من ينظر الأشياء نظرا جليا · فما بالك تلج وتجن اذ تزداد جراءة باطلا على الأفعال الممنوعة · ما بالك لا تقبل من بولس القائل « من أنت أيها الانسان الذى تجاوب الله العل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتنى هكذا » (رو٩:٢٠) أفرأيت بأية طاعة يطالبنا وأى صمت يطلب منا لانه ما قال هذا القول مبطلا سلطتنا المستولية على ذاتها لا كان ذلك · بل قال هذا القول موضحا أن العزم الطالب هذه المطالب يجب أن يكون والحالة هذه فاقدا صوته كالطين تابعا لما يقتاده الله اليه ولا يكون معاندا له ولا باحثا عليه عنه ولذلك لما ذكرنا بطبيعتنا ذكر طينا وفاخوريا على أن الفاخورى والطين جوهر هو هو بعينه· فان يكن يوجد فى الأشياء التى جوهرها هو هو بعينه طاعة على هذه الصفة فكم بالحرى يجب أن يكون فى الأشياء التى لا يعرف الجزء الأوسط فيما

بين جوهريها ومعرفتها وخواصها الأخرى كلها · فأى عفو ينال من يكون جافيا وقاحا بهذه الصفة حتى أنه يبحث عن أفعال الاله الذى أبدعه · فقد قال تفهم أيها الانسان من أنت ولذلك قال ألست رمادا وغبارا وترابا أولست دخانا من أنت · ألست طينــا أولست حشيشا فمــا أنت الا زهرة نبــات · لأن هذه الأمثلة كلها توردها الأنبيــاء فى عرض كلامها بتواتر معتمدين أن يثبتوا لنــا حقارة طبيعتنا · فأما الاله الذى أنت باحث عنه فليس بهــالك ولا مستحيل لم يزل دائما على حال واحدة · لم يزل ثابتا غير ذى بداءة ولا نهاية ولا مفهوما متجاوزا عقلنا وقاهرا فكرنا لا يعبر عنه ولا يوصــف ولا يوصل اليــه بل يعتــاض ادراكه من القوات العلوية الطاهرة غير المنظورة غير المتجسمة المتصرفة فى السماوات فضلا عن أنبيائه ورسله وعنى وعناه وعن مثلى ومثلك ·

البــــاب الثــالث

فى أن الذات الالهية يمتنع ادراكها على القوات العلوية

فضلا عن تعذر ادراكها علينا أيضا

اذا رأيت السيرافيم المتطايرين دون ذلك العرش الشاهق المتعــالى · ساترين بأجنحتهم وجوههم وأرجلهم وأظهرهم وهاتفين هتافا مرعبا ذهولا· فلا تظن أن لهم أجنحة أو أرجلا أو ريشا : لأن تلك القوات غير منظورة · لــكن بهذه الصورة افتكر فى خاصة الجالس على العرش التى يمتنع ادراكها والدنو منها · فانه لا يدرك ولا يدنى منه من تلك القوات غير المنظورة ولا يقاربهم مقاربة · فانما هو لا يقترب فانه ما ظهر حينئذ (أى حين الغرض الذى بدأ به بأول الجملة من وجوده على العرش والساراقيم متطائرين حوله) على ماهو (أى بجوهره الفائق) لأن الله لم يجلس ولا ينحصر فى كرسى ولا يحوى فى مكان · فمــا يستطيعون أن يبصروه جالسا متمكنا على كرسى وهم حوله · وهــذه الأوصاف كلها أوصــاف (يكنى بها عن انه) مقارب لهم · لــكنهم ما يحتملون البرق الطافر من هنــاك اليهم فيحجبون أبصارهم بحواجز أجنحتهم ممجدين له فقط ومسبحين بهتاف كثير رافعين اليه لحن تقديسهم ذلك السرى · أفما تذهب أنت فتدفن ذاتك فى مكان غامض تغوص فيــه اذا شئت أن تبحث بعتو كثير عن عناية الله الذى لا يوصف ولا ينعت

وادراكه يفوق القوات العلوية • فان أوصافه كلها انما هى واضحة بالتمام لابنــه ولروحه القــدوس فقط وليست واضحة لأحد غيرهما وهذان الأمران أوضح لنــا أحدهمــا يوحنــا الصياد • وأوضح الآخر صــانع الخيام وذلك أن يوحنــا الصياد ابن الرعد المتمتع باسترضاء الرب جدا وكان محبوبا جدا عند المسيح حتى صار هذا الحب نعتا له وبرهانا عظيما على فضيلته وأوصله الى أن اتكأ على صــدر الرب فهذا قال ما يأتى « الله لم يره أحـــد قط » (يو ١ : ١٨) فاراد بالرؤيا المعرفة أى ما عرفه عارف فى وقت من الأوقات• « الابن الوحيد الذى هو فى حضن الآب هو خبر » (يو ١٨:١) وهذا المعنى ذاته بينــه السيد المسيح وحققه بذاته أيضا عندما خاطب محفل اليهود فقال (يو ٦ : ٤٦) « ليس أن أحدا رأى الآب الا الذى من الله هذا قد رأىالآب » والابن لم يزل من الله فهو قد أبصر الآب •

والاناء المصطفى اذ جاء الى وصف تدبيره وأراد أن يذكر الأقوال كلها التى يختــاص التكلم بها ويصف كيف عرفناها قال هــذا القول « بل نتكلم بحكمة الله فى سر الحكمة المكتومة التىسبق الله فعينها قبلالدهور لمجدنا • التى لم يعلمها أحد من عظماء هــذا الدهر لأن لو عرفوا لمــا صلبوا رب المجد بل كما هو مكتوب ما لم تر عين ولم تســمع أذن ولم يخطر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٧و٨و٩) • وأنا استخبره قائلا ــ يا بولس كيف عرفنا هــذه • ومن عرفناها • وجعل هذه النعم غير المنظورة واضحة لنــا • مع أنها لم تسمع بها أذن ولاخطرت على قلبانسان• قل لنــا ــ من حمل الينــا هذه المعرفة الفائقة وأين هو فيجيبنى بأنه هــو روح الله الذى أعلن الله لنــا ذلك به (١ كو ٢ : ١٠) وحتى لا يظن ظان أن الروح انما يعرف فقط هذه الأسرار التى كشفها الله لنــا به مع أنه حائز للمعرفة كلها أردف قوله ذلك بقوله « لأن الروح يفحص كل شىء حتى أعماق الله لأن من من النــاس يعرف أمور الانسان الا روح الانسان الذى فيه هكذا أيضا أمور الله لا يعرفها أحد الا روح الله » (١ كو ٢ : ١٠و١١) •

ومعنى ذلك أن الانسان يعرف أمور ذاته ومكنونات ضميره التىيرتبها ويجعلها فى سريرته وخلده ويعرفها كلها بكمال التدقيق • وكــذلك الروح القدس له معرفة الله كلها التى لا يستطاع التكلم عنها بالتدقيق • ويقوله أمور الله لا يعرفها أحد الا روح الله أخرج الخليقة العلوية كلها فضلا عن الناس ولزمنا قول الحكيم • « لا تطلب ما يعييك نيله ولا تبحث عما يتجاوز

قدرتك لـكن ما أمرك به الله فبـه تأمل ··· فانك قد اطلعت على أشياء كثيرة تفوق ادراك الانسان » (يش ٣:٢٢و٢٥) ومعنى قوله ان العلوم التى تكلفتها لا تستطيع تعلمها من ذاتك كما أنك لا تستطيع أن تـكيف طبيعتـك (سليقتك) لمعرفة الأشياء كلها لـكنك تسلمت من العلو معرفة أكثر الأشياء لأنها كانت أعظم من قـدرتك كثيرا فلذلك يجب أن تدع ما فى فهمك مهملا · ما بالك تحاول فى ذاتك أن تبحث عما هو صعب المنـال عليك لان كثيرا مما قد أدركته يفوق بصيرتك وقـد حصلت عليها من جهـة أخرى وهـذا المعنى يوضحه بولس الرسول بقوله · « أى شئ لك لم تأخذه · وان كنت قد أخذت فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ » (١ كو ٤:٧) فكف اذا عن هذه المحاكمة واذعن لتلك المشورة المملوءة حكمة زائدة على غيرها القائلة « لا تقولن ماهذا أو لم هذا » فان البرايا كلها خلقت لحاجتها ·

البـــاب الرابع

فى أن موسى فى بادئ سفره بلفظة واحدة أبطل البحث المولد الخطر

ولهذا السبب لمـا كونت الخليقة وتسلمت رتبتها وقام فى الوسط هذا العمل المنتظم فى كافة ائتلافه البديع تقـــدم الله ليزيل اعتراض المتعنتين والجهلة بلفظة واحدة سد بها المشترع كل لسان متطاول بقوله عن الله انه نظر الخليقة فاذا بها حسنة أمامه وذلك لأن كثيرين سيجدون فى مخلوقات الله ما يذمونه · فان كان النور حسنا فهناك الظلمة · والأشجار فيها ثمر وشوك · والأرض فيهـا الخصب والجـدب والحدائق والجبال والبحار بها الأسماك والحيتـان وفيهـا رياح هادئة وزوابع وحيوانات أنيسة ووحوش مفترسة وهكذا فالله ليسكت لسان المعترض قال « ورأى الله كل ما عمـله فاذا هو حسن جدا » (تك ١:٣١) ·

واذا كان الصانع يعرف أن ما يصنعه يكون حسنا قبـل صـنعه افلا تستطيع حكمة الله المخرجة البرايا كافة من العدم أن تعرف الأشياء قبل أن تكونها أنها جيدة ؟ لأنه لو كان جهلها لما كان ابدعها ·

ولعلك تقول فلم قيل هـذا القول فأقول لك لأجل العلة التى ذكرتها فاذ

قد سمعت القول أن الله أبصرها ومدحها فلا تطلبن فيما بعد برهانا على حسنها وتقولن كيف هى جيدة لأن تحقيق الخالق بأنها حسنة أعظم برهان على حسنها لأن من يريد أن يبتاع أدوية وهو لا يعرفها يريها أولا للطبيب فاذا علم علما يقينا أن ذلك الطبيب قد أبصرها ومدحها فليس يطلب برهانا غير ذلك لفضيلتها وجودتها ولذلك موسى النبى عند ايثاره أن يبطل كل بحث فيما بعد للمعطلين فى أمر الخليقة سبق وأخبرنا أن الخالق أبصر البرايا ومدحها وحكم أنها جيدة حسنة وما قال أنها جيدة فقط لكنه قال انها جيدة جدا فلا تبحثن اذا ولا تفتشن بأفكارك فى البرايا المكونة بعدما مدحها الله . وان لم تكتف بهذا بل تشاء أن تتعمق فى فهم الأشياء دون قول الله فستزج ذاتك الى جدول من الأفكار والى لجج عظيمة مخترعة شتى لنفسك وما تعرف تصنع شيئا أكثر وتدفع بنفسك الى خطر عظيم ولا تقدر ان تجد حدا لهذا البحث لأن فكر الناس ضعيف جدا ينقاد الى الأضداد والناس مضطربون فى أحكامهم فى وصف الخليقة لأن اليونان عظموها أكثر من الواجب لها وتجاوزوا الاعتدال فألهوها والمنانية وغيرهم من ذوى البدع فى الدين قال فريق منهم أنها ليس عمل الاله الصالح وفريق منهم قطعوا أجزاء منها فريدة وصرفوها الى هيولى قد عدمت أن تكون مكونة وحكموا أنها ليست مؤهلة لابداع الله .

فعلى هذه الجهة كما ذكرت أن استعمل أحد الناس أفكاره المجردة عن ارشاد كلمات الله يضل كثيرا ولا يجد حسنا فى القبح ولا قبيحا فى الحسن لأن ما الذى تظنه عندك أبهى من الشمس ؟ الا أن هذا الكوكب البهى الخلق يفسد الالحاظ المريضة ويحرق الأرض اذا بعث شعاعه عليها أشد حرارة ويولد أمراضا ويجفف فى أكثر الأوقات أثمارا ويزيل فائدتها ويجعلها أشجارا عديمة أن تكون مثمرة وقد صيرت لنا جزءا من المسكونة خائبا من أن يكون مسكونا فقل لى ما رأيك أفتعيب الشمس من أجل ماذكرناه؟ فينبغى لنا أن نترك أفكارنا تسكن هادية حينما نسمع الكلمة القائلة « ورأى الله كل ما عمله فاذا هو حسن جدا » فيحسب حكمنا أن التنعم والضحك والحصول فى اللذة أفضل فاسمع سليمان الذى مارس كل نوع من النعيم يقول « الذهاب الى بيت النوح أفضل من الذهاب الى بيت الوليمة » والليل عندنا مكروه الا أن فيه راحة لاتعابنا ومخلصا من الهموم وراحة ليست يسيرة من المخاوف والأخطار . فهل المرض عندك حظ ردى فمن أين

كل لعازر ؟ فهل الفقر عندك مذموم فمن أين وفق أيوب ؟ فهـل الضـغطات المتداركة المتصلة رديئـة عندك فمن أين شـاع ذكر الرسل ايما هى الطريق الموردة الى الحيـاة أليست هى الطريق الضيقة الضاغطة فلا تقولن لمـاذا صار هـذا ولأى غرض هـذا لـكن فى تدبيرات الله وفى ابداعاته أودع أنت خالقك وإلهك الصمت الذى يودعه الطين للفاخورى ٠

البـــاب الخـامس

فى أنه ينبغى لنا أن نوقن أن الله تعالى يعتنى بكافة براياه
وأن الخليقة تحدث المعاندين بجميل عنايته

ولعلك تقول فما رأيك أفما تريد أن أعلم علما يقينا وأصـدق أن الله يعتنى ببراياه كلها فأقول لك أريد ذلك جـدا وابتهل لك به واشـتهيه كثيرا ومعرفته لا تحتاج بحثا عن عنايته وسياسته ٠ فان كنت تريد هذه المعرفة فلا تطلب بحثا وان كنت ترتاب وتشك فىعنايته فسل الأرض والبحر والسماء والقمر اسأل أجنـاس الحى الفاقد النطق المتلونة البذور النباتات الأسماك الفاقدة الصوت الصخور الجبال التلال الروابى الليل النهار لأن عناية الله وسياسته أبين من الشمس بعينها ومن شعاعها وفى كل زمان وفى كل مكان وفى البراية وفى المسكونة وفى العديمة أن تكون مسكونة وفى الأرض وفى البحر وأينما ذهبت تبصر آثار هـذه العناية واضحة كافة عتيقة وجـديدة مبدية من كل جهة أصواتها أفصح من صوتنا هذا الناطق لمن يريد أن يسمعها بالايقان باحسانه ولذلك أوضح النبى حقيقة هـذه الأصوات وقال ليس هى كلمات ولا أقاويل التى ليست تسمع نغماتها وبيان ذلك أن صوتنا انما يصير معروفا عند الذين لغتهم لغتنا فقط ولا يعرف عند الذين لغتهم غير لغتنا فاما صوت الخليقة فيوجد مسموعا عند كافة الأمم الذين من المسكونة ٠

البـــاب السادس

فى وصف حب الله المتجاوز بافراطه كل حب

ولعمرى أن الحسنى النية لا يكفيهم من الوقوف على أحوال الخليقة أن يعرفوا عناية الله فقط بها بل يتبين لهم من ذلك حبه الشديد لنـا لأنه ليس يعتنى بنـا على بسيط ذات عنايته لـكنه يحبنا وحبه لنا شديد جدا يفوق الوصف ويخلو من الضعف والنقص بل دائمـا يشتد حرارة ويزداد قـوة وليس ممكنا أن يخمد فى وقت من الأوقات · ولـكى يبين لنـا جليل قدره اتخذ لنـا أمثلة من الناس ليس ليبين أن حبه لنـا كحبنا بعضنا لبعض بل لأننا لا ندرك حبه كما هو ونستطيع أن نفهمه بعض الفهم اذا مثله لنا بأمثلة معروفة عندنا لذا قال على لسان والنبى « وقالت صهيون لقـد تركنى الرب وسيدى نسينى » فورد لهم الجواب حينئذ يقول « هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها » فهـذا القول معناه كما أن تلك المرأة لا تنسى بنيها كذلك ليس ينسى الله جنس الناس ثم حتى تعلم أنه أورد هذا المثال ليس مريدا أن يبين بهذا المقـدار أن حب الله نظير حب الأم لأولادها لـكنه على سبيل المثال فقط يشبه حب الأم بحب الله اذ هذا يفوق ذاك بما لا يقاس لذلك قال « حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك » (اش ٤٩ : ١٤و١٥) ·

أعرفت كيف تجاوز حبه مقدار حب الأم ؟ وكذلك يتجاوز شوقه شوق الأب الى أبنائه فقد قال النبى « كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه » (مز ١٠٣ : ١٣) ويورد هو أيضا صورة الحب هذه اذ قد امتلكها خاصة به الا أن سيد البرايا كلها اذ أوضح أن اهتمـام الله يتجاوز هـذه الصورة من كثرة وجودها فيه وبمقدار ما بين الضوء باضافته الى الظلام وبقدر ما بين الخبث باضافته الى الصلاح بقدر ذلك الفرق بين صلاح الله وعنايته باضافته الى اخلاص حب الوالد اسمع ما قاله « فمن منكم وهو آب يسأله ابنه خبزا أفيعطيه حجرا أو سمكة أفيعطيه حيـة بدل السمكة أو اذا سأله بيضة أفيعطيه عقربا · » فان كنتم وأنتم أشرار تعرفون أنتعطوا أولادكم عطايا جيدة فـكم بالحرى الآب الذى من السماء يعطى الروح القدس للذين يسألونه » (لو ١١ : ١٣) فبمقدار الفرق بين الخبث وبين الصلاح بقدر ذلك صلاح الله الذى هو أعلى سموا من اشفاق الآباء واهتمامهم ·

فهذه الأمثلة ذكرتها لنقف على عظم وده وله المجد يريد أن يعلن لنـا جزيل حبه لذا يقدم لنا الأمثلة الـكثيرة على ذلك ٠ وكل مثل منها يدل على معنى أسمى من غيره قال بلسان داود « لأنه مثل ارتفاع السموات فوق الأرض قويت رحمته على خائفيه ٠ كبعد المشرق عن المغرب ابعد عنـا معاصينا » (مز ١٠٣ : ١١ و١٢) ويقول أشعيا النبى « لأن افكارى ليست افكاركم ولا طرقكم طرقى يقول الرب ٠ لأنه كما علت السموات عن الأرض هكذا علت طرقى عن طرقـكم وأفكارى عن أفكاركم » (اش ٥٥ : ٨و٩) فهذه الأقوال قالهـا بمعنى أعلى فى وصف اغتفار خطايانا وقوله أننى أغضى عن زيغانكم عن شريعتى أكثر اغضاء وأجزله ثم بين أن اغتفاره عظيم فمثله كما رأيت ٠ ولم يكتف بهذه التمثيلات وحدها ولـكنه يحدد كلامه الى تمثيل آخر أعمق غرضا لأنه قال بلسان هوشع النبى « ماذا اصنع بك ياأفرايم ماذا أصنع بك يايهوذا٠ فان احسانكم كسحاب الصبح وكالندى الماضى باكرا » (هو ٦ : ٤) والذى يقوله هذا يبين به أنه محب ودود لايكف عن الاحسان لمحبيه ٠ ولم يقف عند هذه الأمثلة لـكنه أيضا تقدم الى أبعد غاية منها وأورد مثالا آخر أعظم من ذلك وقال « على نحو ما يفرح الختن بعروسه كذلك يفرح الرب بك كل حين » وهذا عكس غيره من المحبين الذين يكونون فى الابتداء أوفر حرارة وأكثر شوقا ولـكنهم فيما بعد ينطفى لهيب حبهم ٠ ولست أكف عن أن أمثل بهذه الأمثلة الانسانية المفهومة لنا حتى تعرف من هذه الأمثلة غزير حبه الحار الخالص الشديد المتقد ناره لأنه اذ مثل حبـه بحب الآباء أوضح أنه يحبنا أكثر مما يحبنا أبونا ولـما مثله بحب الأم أوضح أنه يودنا أكثر مما تودنا امنا ولـما مثله بعريس وعروس بين أنه يفرح بنا أكثر من العريس بعروسه لأن حبه يسمو بهذا المقدار مقدار ابتعاد السماء من الأرض وأكثر من هـذا المقـدار ٠

وما اكتفى بذلك لـكنه تقدم عند أبعد غاية منها الى مثـال ادل كثيرا لأن يونان النبى عنـد تحيره بعـد هـروبه وبعد مصالحة الله لأهل نينوى وانذهاله من أقواله التى هول عليهم بها والتى ما خرجت الى الفعل وعرض له عارض انسانى واكتئاب مقطبا أوعز الله الى شعاع الشمس أن تبعث لهيبها أوفر حرارة ثم أمر الأرض أن تخترع له سقفا من البقل وجلله واراحه بزيادة فى اللطف به ثم غمـه أيضـا بتغييبـه هذا السقف عنه ولـما أبصره فى تلك الحال وقـد تدارك عليه بضجره اسمع ماخاطبه به « أنت شفقت على اليقطينة

التي لم تتعب فيها ولا ربيتها التي بنت ليلة كانت وبنت بيلة هلكت · أفـلا أشفق أنا على نينوى المـدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من النـاس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة » (يون ٤ : ١٠ و ١١) فالذي يقوله هـذا هو معناه أما اراحك على هذا المثال ظل اليقطينة كما سرني أنا تخليص أهل نينوى وأما غمك أنت على هذه الصورة انتزاعها وهلاكها كما غمني أنا هلاكهم الذي كاد أن يكون صادرا عن عزمي ارأيت كيف يتجاوز في هـذه الأقوال تمثيله فانه ما قال أنت تشفق على نبات اليقطينة وصمت لـكنه استثنى بقوله الذي لم تتعب فيها ولا ربيتهـا لأن الفلاحين من عاداتهم أن يحبوا خصوصا من غروسهم تلك التي قد تعبوا فيها تعبا جزيلا فزاد هذا اللفظ الايثار أن يبين أنه يحب الناس على هذه الصورة لأنه قال ان كنت أنت متشبث هـذا التشبث بالعمل الغـريب منك فاذا أحق وأولى بأن التشبث بعملي أكثر الذي أنا مبدعه ثم بين سبب خطأ أهل نينوى بقوله « الذين لا يعـرفون يمينهم من شـمالهم » أي أنهم اجترموا جرائمهم بغبـاوتهم أكثر مما اجترموها بخبثهم وهـذا المعنى فقـد أوضـحه تمـام توبتهم · وانتهر أناسا آخرين نائجين كأنهم مهملون فقال هذه الألفـاظ لم تسألونني في أبنـائي وتوصونني الاشفاق على أعمال يدي فالذي يقوله هذا معناه : من يذكر أبا ويتوسل اليه في أن يعتني بابنـه ومن يذكر صـانعا مخترعا حتى لا يهمل عمله أن يسقط ولقـد عرفتم كيف يهتم الأب بابنـه والصانع بصانعه فـكيف اتظنوني محتاجا الى من يتوسل الى حتى أعضد أبنـائي وأعمالي ؟ فهذه الأقوال قالها ليس حتى لا يسألونه لـكنه قالهـا ليعرفوا أن الله يعمل ما يناسبه قبل سؤالهم اياه ويريدهم أن يسـألوه لأن الفائدة للذين يسالونه عظيمة في هذه الجهة ·

ارأيت كيف يلمع البرهان على عنايته الممتنع وصفها لنـا بهذه المثالات أبين وضوحا وأبهى من الشمس حسنا وتأمل الغرض الذي كان قد أورد في كلامه الأب والأم والختن والعروس وبعد السماء والأرض والفضاء الذي بين المشارق والمغارب وناصب الغروس التعب من أجل البقل النبـات والمولد والعاشق الشديد اهتمامه المرتجف خوفا على معشوقه حتى ولو بألفاظه وقال أن صلاح الله بهذا المقدار يفوق على هذه المثالات كلها بمقدار ما يفوق الخير على الخبث ولربنا المجد ·

البـــاب الســابع

برهان بالخليقة على عناية الله تعالى وسياسته

فهذه على ما ذكرت كافية للخالص ودهم وحفاظهم ولـكن اذا كان قد يوجد اناس جسديون يصعب اصغاؤهم ويعسر عليهم قبول كلامنا لضـعف فهمهم فهات نبرهن لهم عنايته بأفعاله بأعيانها على حسب امكاننا لأنمايتيسر لنا أن نبرهنها كلها وأليق ما يقال أننـا ما يمكنا أن نبين الجزء اليسير منها بهذه الصورة وهى قد عدمت أن تكون محدودة أو موصوفة لأنهـا لامعـة بأفعالها اليسيرة والجسيمة وبتـأثيراتها الملحوظة وغير الملحوظة لأن هذه الخليقة العجيبة المنتظمة فى كافة ائتلافها وابداعها ليس لغرض آخـر الا لأجلك وجعلها حسنة بهذه الصورة عظيمة متلونة موقرة نافعة كافية مريحة من كافة جهاتها معطية جسمنا طعـامه وحاجته ومقدمة لنفوسنا العلم الذى يرشدنا الى الطريق المستقيم لمعرفته تعالى ·

لأن هذا الوجود لم يخلق للملائكة لأن الملائكة أقدم منه فى الخلقة بل ان الملائكة أنفسهم ترنموا بمدحها عنـدما خلقت كما قال أيوب « عندما ترنمت كواكب الصبح معا وهتف جميع بنى الله » (اى ٣٨ : ٧) ·

أى حين كونت النجوم سبحتنى كافة ملائكتى · ومجدونى بصوت عظيم متحيرين من كثرتها من حسنها من وضعها من بهجتها من اشراقها من نظامها من خواصها الآخر كلها التى عاينوها أكثر مما نعاينها · ولم يكتف بجمال السموات والنجوم لـكنه جملها مع ذلك بالشمس والقمر وزينها واهبا لك فى كل وقت اللذة بها كثيرا مخولا اياك الحاجة الجزيلة لأن ماذا يكون أبهى من السماء حسنا الذى يلمعها الشعاع أحيـانا وتضىء الأرض بكثرة نجومهـا المسلوبة تحـديدها كشهب بارزة من عيون · أحيـانا مرشـدة المـلاحين والمسافرين لأن القاطع لجة البحر الجالس على سفينته البـاذل ذاته لمواقع الأمواج ولشدة الرياح ومعاركة الوحوش ولظـلام الليل الفـاقد بدره يثق بالهداية من النجوم والنجم الموضوع فى علو جزيل تقديره يقتـاد من بعـد جزيل الجالس فى سفينته اقتيادا على هذا المثال باستقصاء ذاته قريب منه

حاضر لقربه ويوصله الى الموانى · لعمرى أنه ما يبدى صوتا الا أنه ينظره يريه الطريق ويقطع له المسـير البحرى بحيـاطة ويريه الأوقات ويرتب له الزمن · وهذا ليس نافعا للنوتيـة فقط لـكنه نافع للمسافرين فى البر أيضا حتى لا يمارسوا السفر فى وقت مجهول من الليل ولا يجلسوا فى منازلهم فى الوقت الموافق لمسيرهم وهذا الفعل فقد أؤتمن عليه مع النجوم أيضا مساعى القمر بأبلغ الاستقصاء فكما تحدد الشمس ساعات النهار فكذلك يحدد القمر ساعات الليل ويمنحنا حاجات كثيرة أخرى وينمينا بطبيعـــة الهواء وينمى البـذور ويفيدها من ذاته المنفعة التامة لتكوينها ويقف ما بين صف النجوم واشراق الشمس فتحصل لذة من هذا اللون للناظرين ليست يسيرة ·

فحكمة الله لم تكتف أن تجعل من الـكواكب والنجوم مرشدا وهاديًا ومنظما للأوقات والأزمنة ولـكنها جملتهـا بأبهى الألوان وأجمل المنـــاظر ليصير مع الانتفاع منها التلذذ بها لأنه ما الذى يكون أكثر بهجة لنـــا من السماء المبسوطة حينـا فوق رؤوسنا بصورة جلال نقى صاف المتلونة حينا بهيئة بستان وقــد سرنا منظرها نهارا مجملة بالشمس ويسرنا منظرها ليـلا بتـألق النجوم فى كبدها · فالسماء جميـلة من سـائر جهاتهـا وفى كافة أوقاتها · وتلون حسنها يكون صـافيا دائما · ما الذى يكون ألذ منظرا منها اذا وافى الليل ولم يكن بعد قـد ألمعها شـعاع الشمس الأشـقر كمنسـوج الوشاح الزعفرانى · ما الذى يكون أبهى منظرا من الشمس التى تطلع من جهة المشرق وفى لحظة صغيرة تضىء أشعتها كل أرض وكل بحر وكل جبل ورابية والى السماء كلها وتخلع عن البرايا المنظورة حجاب الليل وترينـا الأشياء كلها عارية لدى أبصارنا أنظر كيف تدهشنا بسرعة سعيها وحسن ترتيبها وخدمتها التى لا تتغير طول السنين وجمالها الذى لا يذبل · ولمعانها الذى لا ينطفىء · وانظر كيف تلاقى أشياء كثيرة ولا يصل اليها أذى حيث تتصل بالبـذور والغروس وأجسام النـاس وفى ذوات الأربع وفى البهـائم فى الأسماك فى الأهوية فى الحجارة فى النباتات فى الأرض فى البحر فى الهواء فى البرايا المنظورة كلها على الاطلاق لان البرايا كلها تحتاج وتستمتع بحاجتها منها وتصير أفضل مما كانت اذا ساهمت حاجتها منهـا · وليس الأجسام فقط ولا الغروس لـكن المياه أيضا والبحيرات بعينها تنطلق بهـا وتنتقى وتصـير أصفى مما كانت ولهـذا المعنى لمـا أراد المترنم أن يوضح حسنها البهى باتصـال دوامها وجمالها الدائم وزهوتها التى ما تسـقط فى

وقت من الأوقات وحسن بهائها وجمال صورتها وخدمتها الناجيـة من تعويق يقطعها قال هذا القول « جعـل للشمس مسكنا فيهـا · وهى مثل العروس الخارج من حجلته » ثم أوضح سهولة خدمتها وقال « يبتهج مثل الجبـــار للسباق فى الطريق » وبين خاصتها الـكافية التى تحوى كافة المسكونة « من أقصى السموات خروجها ومدارها الى أقاصيها ولا شىء يختفى من حرها » (مز ١٩ : ٤ ـ ٦) ·

أفتشاء أن أصـف لك من أى جهة أخـرى يجب أن تعرف الأحوال من البحر من الأرض من الأصـناف المتلونة التى فى البحر القـاهر من ذوات الأربع الأرجل التى فى الأرض من الدبابات من الطيور الساكنة فى الهواء من البرية من التى تعيش فى المسكونة وغير المسكونة والبذور النابتـة من الشجر من الحشائش التى فى البرارى والتى ليست فى البرارى من النباتات الثابتة فى البقاع فى الأودية فى الجبال فى التلال فى الحشائش النابتة من ذاتها من الناشئة بتعب وفلاحة من صـنوف الحيوانات الأنيسة الوحشية الداخلة تحت يدى النـاس الصغار منها والـكبار من التى تظهر فى الشتاء من التى فى الصيف تخرج من التى تظهر فى الخريف من الطيـور وذوات الأربع الأرجل والأسماك والغروس والحشائش المتكونة فى الليـل من التى تتكون فى النهار من الأمطار فى الأوقات من الانقلاب من الساعات من مقدار السنين من الموت من الحياة من الوجع الكائن معنا من الكآبة من الطعام من الشراب الذىأعطيناه من ملابسنا من أبنيتنا منالخشب منالحجارة منالمواد المعدنية من البحر المكن المسير فيه من البحر المانع المسير فيه من الجزائر من الموانى منالسواحل من سطح اللجة منقاع البحر منطبيعة الاستقصاءات التى منها تسكون العـالم لنسـا من ترتيب الأوقات من فعل مقـدار الليـل والنهار من المرض من الصحة من أعضائنا من تكوين نفسنا من صنائعنا من الحكمة الموهبة فيها لجنس النـاس من حاجة البهائم التى تخدمنا والغروس وغيرها من المـكونات من صنوف الحى أصـغرها وأحقرها · ماذا يكون أصغر وأحقر من النحلة ماذا يكون أحقر من النمل ولـكن هـذه الـكائنات الذميمة تبدى مع ذلك صوتا بهيا فى وصف عناية الله وقوته وقدرته وحكمته ولهذا المعنى لمـا تخيل النبى المؤهل لروح هـذا مقداره جسيم الخليقة وشرح أصنافا منها حقيرة جدا صرخ بدهشة كبيرة بذلك الصوت العجيب « ما أعظم أعمـالك يا رب · كلها بحكمة صنعت » (مز ١٠٤ : ٢٤) وهـذه البرايا

كلها لأجلك - لأن الرياح لأجلك خلقت (لأننى أعود الى كلامى الأول أيضا) لتروح على أجسامنا اذا توجعت لتنظف الوسخ والفساد الكائن من الحماة وتزيل الغبار والثقل الكائن من الدخان ومن أمثال هذه وغيرها لتغذى البذور لتنمى الغروس لتسافر معك فى البحر وتصير خاصته فى الأرض لفلاحتك فهنالك فى البحر تسير السفن تسييرا أسرع من السهم وتسلو الشقاء الكائن من العمل وها هنا تنظف بيادرك معك وتميز التبن من التبر لتجعل لك الهواء خفيفا ناعما لتسرك من جهة أخرى بسمعك والحاظك فتصفر صفيرا حلوا ساكنا وتصدم حينا الغروس وتهز أوراق الشجر وتفيدك من هذه الجهة لذة كثيرة لتجعل نومك فى حين القيظ لذيذا أشد حلاوة من العسل حتى تكون ماتعمله فى الشجر اياه تعمل فى مياه الأنهار حيث تموج سطحها وتمنحك من هذا الفعل لذة نظرك لتتسلى عن الحرارة الكائنة من أشعة الشمس كما أن الهواء نافع للمياه من جهة أخرى فما يترك المياه تتعفن اذا وقفت وقوفا دائما لكنها باتصال تحريكها اياها وترويحها تجعلها متجددة وانها ملائمة لتغذية أصناف الحى السابحة فيها ·

وان شئت تتصفح الليل بعينه وتبحث عنه تبصر فى هذه الجهة عناية الخالق كثيرة لأنه يريح جسمك عند تعبه وتوجعه ويطلق أعضاءك بعد تمددها فى الأتعاب طول النهار ويخلصك من الغموم العارضة لك طول نهارك ويريحك من الهموم التى قد فاتها وقتها وقد خمد فى أكثر الأوقات حمى المريض اذ أورد له النوم بدلا من الأدوية وسير خبرة صناعة الأطباء فيه الى ميناء راسخ صخره وخلصنا من أتعاب وأوجاع كثيرة فالحاجة الى الليل هذا المبلغ مبلغها وهذه المنفعة الجزيلة منفعته من طريق أن الليل يعطينا ما يعجز النهار عنه فيظللنا بظله وراحته وسكونه الذى به تستقر البرايا كلها وتترطب نفسنا بعد تعبها وجسمنا اذا شقى فى الاتعاب يتجدد وهكذا يمكن بعد راحة الليل أن نمارس النهار متجددين فلو كانت الحياة نهارا فقط ما كان أتعبها ولكن الله جعل النهار لعملنا والليل لراحتنا · وان بسطنا كلامنا الى سعى الأسماك الذى قد فاتنا خبرته التى فى البحيرات التى فى العيون التى فى الأنهار الوحشية والأنيسة التى فى البحر الذى يتيسر المسير فيه التى فى البحر الممتنع المسير فيه · والى أعظم أجناس الطيور المحتجز وصفها التى فى الهواء التى فى الأرض التى فى المياه جميعا لأنه توجد فيها أصناف كثيرة منها الوحشية ومنها

الأنيسة ومن التى تكون وحشية نفوره فتؤنس وتدخل تحت أيدى من يسوقها ويؤنسها من المـأكولة من التى ليست مأكولة واذا تبينـاها واحدا واحـدا وتأملنـا من كل منها حسنه ورياشـه ونغمته المغردة المترنمـة وان تأملنـا فقط فائدتها وطريقتها ومقـاماتها واخلاقها وحاجاتهـا وخدمهـا وشرحنـا الخدم التى يخولنـا اياها كلها وعظمها وصغرها وتناسلها وتصرفها والتلون الـكثير المحتجز وصـفه فيها وعملنـا هـذا العمل بعينه فى الأسماك وجئنا من هنـا الى الحشائش اليـابسة النـابتة فى كل موضع من الأرض والتربة ووصفنا ثمرة كل منها وحاجتـه وطيب رائحته ونضرته ووصـــفه وورقـه ولونه وشكله وعظمه وصغره ومنفعته وأصـناف فعله وفصول قشره واصوله واغصانه وتأملنا البساتين والغيـاض ثم انتقلنـا الى افاوية الطيب المتلونة المختلفـة أصـنافها وتصـفحنا أماكنهـا وأحوال وجودها والاهتمام بهـــا واستغلالها وتأملنا بعد ذلك أيضـا تلك الأحجار المعدنية المحتجز وصفها وما ينفعنا منها وتصفحنا هـذه وغيرها أكثر منها فى كل مافى الخليقـة فأى كلام أو أى زمان يكفينا لتأملها البليغ الاستقصاء عنها وهـذه كلهـا لأجلك والموت لأجلك والحيوة لأجلك والنمـاء وأعمـال الطبيعـة الجزيل تقـديرها والصـنائع والأعمـال والمـدن والضياع والنوم والتربة لأجلك والعالم الذى هـذه حاله الآن لأجلك وسيكون أفضـل من هـذه لأجلك والدليـل على أنه سيكون أفضـل من هـذا وكونه لأجلك اسمع ما قاله بولس فى ايضـاح ذلك قال « لأن الخليقـة نفسها ستعتق من عبودية الفسـاد الى حرية مجد أولاد الله » (رو ٨ : ٢١) ومعنى ذلك أنها ستعتق من أن توجـد باليـة فاسـدة ولولا خيفتى أن أجعل كلامى طويلا أكثر من المقدار المعتـدل لتفلسفت بأقوال كثيرة فى وصف الموت وكنت أبين فى هـذا الوجه خصوصا حكمة الهنـا وعنايته ولقلت أقوالا كثيرة فى البلى فى الدود فى تربتنـا . هذه الأصناف التى بحث عنها الـكثيرون ولأن أجسامنا تتحلل الى تراب والى غبار والى دود وأبين فى هـذا الوجه عنايته المحتجز وصفها واهتمامه لأن من عنايته بعينها من صلاحه بعينه الذى به أبدعنا ولم نكن موجودين من هذا الصلاح بعينه أوعز بموتنـا وأمر أن نصير الى غاية هذه حالها لأن أفعاله الـكائنة وان كانت مختلفـة لـكنها موجودة من صـلاحه الواحد لأن المـائت لا يضر من هذه الجهة ضررا والحى بعده يستفيد من قوته أعظم الفوائـد لأنه اذا ما أبصر من كان ماشيا معـه أمس وقبـله منحلا متحللا الى رماد وتراب ولو كان متجبرا تجبر ابليس المحال بعينـه فمن شأنه أن يتـذلل وينقبض

ويخاف ويتعلم أن يتفلسف ويحتمل ويتخلص من التجبر الأعظم ضررا من الرذائل كلها وينكر نفسه المتعالية ويعلمها أو يذللهـــا ويســكن فى سريرته تواضع اللب ابو كافـة الأفعـال الصالحة والمـاضى من الدنيـــا فلم يحصر ضررا لأن هـذا الجسد سيقوم عـديم الفسـاد فالموت معلم لنـــا اذ يؤدب تمييز فهمنــا ويلجم اسقام نفسنا ويقبض أمواج فكرنا ويحصل السكون فى سريرتهـا ٠

فاذ قـد عرفت من الاقوال التى قـد قلنـاها ومن غيرها اكثر عناية الله عز وجل التى هى أبين ظهورا من هـذا الضوء فلا تبحث ابحاثا مختلفة فيما يسمو على فـكرك ولا نحاول معرفة علل كل الأشياء لأن وجودنا بعينه انما هو من صلاحه وهبه لنـا وليست به حاجة الى خدمتنا وقـد يجب علينا أن نعبـده ونسجد له ليس لأنه ابدعنا فقط ولم نكن موجودين ولا لأنه وهب لنـا نفسا ناطقـة خائبـة من جسم ولا لأنه فوض الينا التملك على برايايه الملحوظة وقلدنا رياستها ولا لأنه خلقنـا أفضل من باقى الموجودات لـكن لأنه ليس محتـاجا الى شىء منـا لأن هـذا هو العجيب فى صلاحه أنه ليس يحتاج الى أحد منا لأن قبل تكوينه ايانا والملائكة والقوات العلوية كان حاويا مجده وغبطته وأبدعنا لأجل تعطفه فقط وخلق كل ما خلق لأجلنا ٠

البـــاب الثـامن

« فى أن البرهان على عنايته الـكثيرة اعطائه ايانا الشريعة الطبيعية والمـكتوبة وانه جعل الرجال الشجعان أن يصيروا معلمين للامم التى قبلهم حين انطردوا اليهم ووهب لنـا بعد ذلك ورود وحيده وهو رأس الصـالحات لأنه لأجلنـا كتب شريعـــة أعطانا اياها وأرسل أنبيـاء واجترح عجائبـه الى التمام » ٠

وحينما خلق الله الانسان وضع فيه الشريعة الغريزية معلما ونصبها لأفكارنا بمنزلة المـدبر فى السفينة وكالرابض للنفوس من هذا وعلى هـذه الجهة عرف هابيل هذه الشريعة ولم تكن الكتب بعد موجودة ولا الأنبياء ولا الرسل ولا شريعة مكتوبة هاتفة بفرائضها لـكنه حوى الشريعـة الغريزية وقد عرفها قائين على هذه الجهة لأنهما كلاهما عرفاها وعرفا سـيادة الله عليها ولـكنهما لم يسلكا طريقا واحدة بعينهـا لـكن أحدهمـا هابيل سلك

طريق الفضيلة · وما أهمل الله قايين حين سقط لـكنه بعد سقوطه وعظه أولا وأدبه أخيرا وغلمه · فلما لم يعمل الأكثرون من الناس بموهبـة هـذا مقدار منفعتها وهى منفعتهم من تعليمهم الطبيعى ما أبادهم على هذه الحال ولا دفعهم الى هلاك لـكنه لبث يؤدبهم بكتبه باحسانه ويعظهم بعقوباته بهذه الخليقة الفاعلة كل يوم فعلها المتممة خـدمتها المـألوفة بالحوادث الحادثة حدوثا معجزا بخلاف العوارض المـألوفة برجال اتقيـاء فى بدء الزمان لأنه نقل رجالا أفاضـل مملوئين فلسفة من مواضـع الى أماكن غيرها لأنه نقل ابراهيم حينـا الى فلسطين وجعله حينـا أن يذهب الى مصر أيضا وسير يعقوب الى الشام وموسى الى مصر أيضا والثلاثة الفتية ودانيال الى بابل وأرميا الىمصر وأعطانا شريعتهوأرسل انبياءه وزجرنا وأهملنا والى الأسر دفعنا وللعتقأهلنا وما انفك منالابتداء الىالانتهاء يفعلأفعاله كلها ويدبر كل شىء من أجل جنسنا لأنه ما اكتفى بتعليمنا من خليقته المؤدى الى معرفةالهيته فقط لـكن اذا ما اشتمل الأكثرون من تلقاء حفاظهم من هذه الجهة نفعا فتح لخلاصهم طرقا أخرى وبعام احسانه وتمامه قـدم لنـا هذه الأفعال الصالحة وأرسل ابنه الوحيد متجسدا من طبيعتنا بعينها التى له فصار مثلنـا ومشى فى أرضنا وتصرف مع النـاس وأكل معهم وشرب وطـاف أرضنا يؤدبنـا يعلمنا يجترح عجائبه فينـا وأدبنا بالأقوال التى قالها ووعظنا بها بالنوائب التى قاساها بالعوارض التى اصطبر عليها بالمواعيد التى وعدنا بها بالصلاة التى منحنا اياها بما أعطانا من عطايا وما وعـدنا من المنح جاعـلا برهان مواعيده أهلا للتصديق وبعجائبه التى اجترحها لنا مؤيدا بها حقيقة كلامه ·

فمن يستطيع أن يصف أفضال ربنا علينا من لا يدهش من اهتمامه من لايرتاع من عنايته المحتجز وصفها اذا تفطن كيف من أجل عبيد فانين بذل ابنه الوحيد الى الموت اللعين الى الموت الجالب العار موت المجرمين أعظم الجرائم وصلب على خشبة عالية وبصق عليه ولطم ودفن ووضعت سماته فى قبره وهـذه الحوادث كلها كانت لأجلك ولأجل احسـانه اليـك حتى يحل اغتصاب (الخطيئـة) والموت ليفتح لنـا أبواب السماء لتغيب اللعنة لتحل القضية الأولى التى قضى بها علينـا لنتعلم الصبر لنستفيد الثبات والاحتمال لـكيلا يغمك عارض من عوارض عيشتنا الحـاضرة لا بسبب ولا بموت ولا مذمات ولا سياط ولا اغتيالات أعداء ولا تعسفات ولا غارات ولا وشايات ولا ظنون خبيثة ولا صنف آخر من هذه الأصناف وامثالها لأن من أجل هذه كلها

جاء وشاركك في هذه العوارض كلها وبكافة ماقاساه ضبط لك النوائب كلها بزيادة الاستظهار عليها وأدبك وعلمك الا ترتاع منصنف من هذه الأصناف وأمثالها وما اكتفى بهذه فقط ولـكنه بعد طلوعه الى سمواته وهب لنا نعمة الروح القدس السامي وصفه وأرسلرسله الخادمين بقوة الروح يقاسـون الآلام الجزيل عددها مضروبين بالسياط مشتومين مفرقين مقطعين محترقين بالجوعوالعطش عائشين فيميتات مداهمة لأجلك كليوم وارتضى بذلك لأجلك ولأجل اهتمامه بك · وأعد ملكه لأجلك ونعمه الصالحة الممتنع وصفها وتلك النهاية التي هي سمواته ومساكنه المختلفة المتلونة وتلك السعادة التي ليس يمكن في وقت من الأوقات ترجمتها ·

فاذ قد وجدت لبيان جليل عنايته دلائل هذا مبلغها في العهد العتيق في العهد الجديد في هذه العيشة الحاضرة في الحوادث الكائنة وفي التي تتكون في أفعاله المصنوعة كل يوم في أفعـاله في ابتداء الزمان في وسطه في التي تكون في غايته في الكائنة بمداومة في الكائنة في حين بعد حين من الزمان· في التي لأجسـامنا في التي لأجل أنفسـنا ورأيت البراهين عليها شـهودا متقاطرة من كل جهة معلنة عنايته وسياسته فهل تشك أيضا ؟ قـد تقول انك ما تشك لـكنك تقول وتصدق أنه يعتني بكل شيء فقد ملأت ذاتك من الايقان بذلك فلا تفتش اذا تفتيشا كثيرا اذ قـد عرفت هـذا المعنى معرفة واضحة انك قـد حويت سيدا أخلص ودا من الآباء أوفر اهتماما بك من أمك أشـد عشقا لك وأوفر من عشق الختن والعروس محتسبا خلاصك نياحة وراحـة مسرورا بخلاصك اكثر من سرورك انت به من الأخطار والميتـات وهذا المعنى فقد أوضحه بيونان وثبت كافة صور حنوه كما بينا سابقا لأن عناية الله قد عدمت أن تكون مترجمة أو مدركة وسياسته يمتنع الوصول اليها وصلاحه يعسر علينا وصفه وتعطفه قـد عدم أن يقتفى أثره فاذا قـد عـرفت هـذه الشواهد كلها وأيقنت بقضاياها التي حققها وبافعاله التي فعلها ويفعلها فلا تبحث عن صنف من أصناف العوارض ولا تكثر تفتيشك ولا تقل لمـا صـار هذا الى وبماذا ينتهي هـذا وكيف ؟ فهـذا الريب يؤدي الى الحيرة والشك· أفلا تسلم الى الله تسليمك للبشر فاننـا اذ جاء طبيب يداوينا نسلم له اذا كوانا اذا سقانا أدوية مرة ولو كان غلاما وكل ما يصنعه لك تحتمله بأوفر صمت وتعرف له المنة على كيه اياك وعلى بتره لأحد أعضائك وهـذا تحتمله رغبة في الصحة دون أن تؤكـد الحصـول عليهـا لأن كثيرين من الأطبـاء

استعملوا صنوف مداواتهم فقتلوا المرضى وهـذا ما نعمله مع النوتى والبناء وبغيرهم من الذين يمارسون صنائعهم لاننـا نحتسبه جهلا أن نطالب الصانع بعلل الأعمال التى يعملها كلها حين نكون جاهلين بصناعته ومع أننا نظهر هذا الخضوع لأصحاب المهن العالية فاننـا نحن نجسر ونبحث عن الحكمـة المتنع وصفها السامى نعتها العالى ادراكها ونلتمس لمـا صار كذا وكذا على أننا قد علمنا علما يقينا أن هذه الحكمة ناجية من الزلل وأن صـلاح الهنـا جزيل وأن عنايته يمتنع علينا نمتها وأن الأفعال الواصلة الينـا كلها صالحة اذا وصلت الى غايتها ان لم تقطعها فقط أفعالنـا وأنه ما يشاء يهلك واحدا منا وأن يخلص كافتنا ويريد ذلك ويقتـدر عليه وكيف لا نحتسب بحثنا عن أفعال الله جهلا بل جنونا لأننـا ما نبحث عما يعمله معنا فقط لـكننا نبحث عن أفعاله كلها منذ مبادئها وما نصير الى منتهى العوارض الـكائنة هـذه غباوة لا حد لها ٠

البـــاب التـاسع

فى انه يجب أن نتبصر الى غايات اعمال الله

فالحال الأفضل كثيرا أنه لا يجب أن نبحث عن أفعال الله وان رمنـا بحثا فيها فلا نبحث عنها من مبادئها ولـكن لنتبصر الى غايتها فتأمل الى أين تنتهى لا ترتجف من مبادئها ولا تنزعج لأن الصانع اذا أبصره تاجر قد عدم الخبرة بصناعته يسبك الذهب فى ابتداء عمله ويخلطه بالرماد وبالنخالة والتبن ان لميصبر الىنهاية عمله فيظن أن الذهب قد هلك وضاع وأيضا ان كان أحد النـاس قـد ولد فى البحر وتربى فيه ثم انتقل الى فضاء الأرض بغتة وكان بجملة حاله لم يسمع اهتمام الناس بعمل الأرض وأبصر الحنطة مخزونة محفوظة موضوعة فى موضع نظيف بعيد عن المـاء ورأى الفـلاح قـد أخرجها على غفلة ويذرها وطرحها فى الأرض وقد صـارت فى الحقل لدى جميع المجتازين ولم تخلص من المـاء فقط بل غرقت به ودفنت فى الطين انما يظن أن الحنطة قـد تلفت وضـاعت ويلوم الفلاح الفاعل هذه الأفعـال الا ان لومه ليس هو منسوبا الى طبيعـة الفعل لـكنه منسوب الى زوال خبرة من لم يميز تمييزا صائبا والىغباوة الذىحكم للحين هذا الحكم منذ المبادىء لأنه لو صبر الى الحصاد وأبصر الحقول مخصبة ومنجل الحاصد مرهفـا ورأى الحنطة المبـذورة المسلمة للطين ناهضـة أيضا صائرة اضعافا كثيرة

أبهى خصبا وأكثر تجديدا فاقدة عفونتها منقومة فى كثرة بهائها لابسة لباسا فاخرا منهضة الى العلو ساقها تسر الناظر اليها وتغذيه وتفيده ربحا جزيلا لكان ينذهل انذهالا عظيما حينئذ لأن الثمر انساق بتلك الأفعال الى هذا الخصب والبهاء وأنت أيها الانسان فالحال الأفضل لك كثيرا الآن أن لاتبحث عن أفعال سيدنا كلنا ولا تكن بهذه الصورة جسورا على البحث وأردت أن تركب هذا المركب الخشن وتسلم نفسك لما يسوق الى الجنون بل تبصر الى غاية الحوادث الكائنة لأن الفلاح ان كان يبصر لا الشتاء كله ولا ينظر فى حين البرد الا الى ما يظهر من الحنطة ولا يفكر الا فى تلك الأثمار التى يؤمل أن يتمتع بها فأولى بك أنت وأليق أن تعمل هذا العمل وأن تنتظر على جهة الواجب نهاية أفعال الله فى المسكونة كلها ولست أقصد النهاية التى فى هذه العيشة فقط الحاضرة لأن ربما لا ينتهى عمل من أعمال الله فى هذه الحياة بل أروم بالنهاية فى العيشة المأمولة لأن تدبيره ينظر الى غاية واحدة لهاتين المعيشتين كلتيهما من جهة خلاصنا وتوفيقنا وان كان ينقسم فى الزمان الا أنه ينتظم فى الغرض والمعنى وعلى نحو ما يكون أحيانا شتاء وأحيانا ربيع وكل واحد من انقلابى الزمان ينظر الى غرض واحد هو اكتناز الأثمار وخصبها هذا المجرى يجرى فى أحوالنا فاذا رأينا كنيستنا مشتتة قد فقدت أولادها تقاسى من الشدائد نهاياتها . أهلها مطرودون لا معين عند ضربهم بالسياط والرئيس المتقدم عليها مبعدا الى أبعد المنافى فلا تتأمل هذه الحوادث فقط لكن توقع من هذه الحوادث الفوائد التى تحصل فى أواخرها من صنوف المجازاة عنها ومن اقسام المكافأة عليها لأنه قال عز قوله « من يصبر الى المنتهى فهذا يخلص » .

واذا كان العهد القديم الذى لم تكن السعادة الأبدية معلنة فيه كما يجب كانت فيه الأتعاب والمسرات وكان كثيرون يصبرون على التجارب مع ماعندهم من قليل العزاء فكم بالحرى ينبغى أن يصبر عليها أبناء العهد الجديد الذى جاء فاديهم وأنار لهم طريق الخلود . واذا كان الأنبياء فى العهد الأول لم يشكوا من بلايا هذه الحياة ولم تكن عندهم المواعيد التى لنا فكم بالحرى يلزمنا نحن من الامتثال والخضوع وقد وعدنا بحياة سعيدة لا توصف . أولئك مع قليل الرجاء الذى لهم مجدوا الله فى مصائبهم أفلا نكون نحن أوفر شكرا منهم . وهذا ما سأبينه بوضوح .

البـــاب العـاشر

في ان القدماء انتظروا نهايات الاحوال

بعد أن صار ابراهيم فى وقت من الأوقات شيخا وعدم القـدرة على ايجاد نسل · وكانت زوجته أقل من الصخرة قدرة على الولادة ولـكنه حينئذ وعد ان يكون أبا لبنين كنجوم السماء ورمل البحر فى الـكثرة فلم ينظر الى ما كان يعترض ذلك من عوائق وموانع هذه صفتها من كبر سنه ومن امرأته الفاقـدة قوة التوليد من كبر سنها ومن طول زمانهـا ومن طبيعتهـا لأن ما منعها عن التوليد ليس شيخوختها فقط لـكن منعها عنه أيضـا عطل فى طبيعتها لأنها اذ كانت شـابة كان مصنع طبيعتها عاطلا من الانتفاع به لأنها كانت عاقرا ولهـذا السبب اذ دل بولس على هـذا المعنى بعينــه قال « واذ لم يكن ضـعيفا فى الايمان لم يعتبر جسده وهو قد صار مماتا اذ كان ابن نحو مئة سنة ولا مماتية مستودع سارة » (رو ٤ : ١٩) فمـا قال ميتوتة سارة على بسيط ذاتها لـكيلا نتوهم أنه توخى سنها فقط دون أن نعتقد أنه انما توخى ميتوتة مستودعها بعينــه · غير أنه مع هـذه الموانع العظيمـة فى تقـديرها على ماذكرت اذ عرف ماهو وعد الله وكيف هو دقيق الحيلة سريع النفوذ وأن موعده ليست تعوقه شريعـة طبيعيـة ولا صعوبة الأحوال ولا اى صنف آخر من صنوف التعويق لـكن موعده لا يسقط · فلذلك اقتبل ماقيل له وصـدق ما وعـد به وما ترك الشك بداخله البتة وحكم أن وعـد الله مؤهل للتصديق وما بحث كيف وبأى حال تكون هذه المواعيـد ولم لم يوعد بذلك فى حداثتــه لـكنه وعد به فى شيخوخته وفى آخر أوقاته ولذلك يذيع بولس فضـلـه بأن ايمانه وتصـديقه كانا خارجين حد الأمل الانســانى فامن بالله الحى القاهر الموانع كلها القـادر على ما يشاء الغـالب العوائق بجملتها وصـدق ليس ان يكون أبا فقط لـكنه صـدق أن يكون أبا لامم هذا مقدار كثرتها وقـد كان شيخا فانيا وامرأته عجوز عاقر فلم يتـأمل جسده مماتا لأنه كان ابن مائة سنة ولا ميتوتة احشاء ساره وما تقسم رأيه فى وعد الله بقلة ايمان لـكنه تقوى فى تصديقــه اذ أعطى الله مجدا وأيقن أن ماوعد به هو قادر أن يفعله وبهذا العزم مجد الله تمجيدا جزيلا لأنه لم يتقدم الى البحث بل سند كل شيء الى قدرة الله الممتنع وصفها ولم يكثر من القـول لم وكيف ·

ولـكن أعجب من ذلك أنه لما أمر أن يذبح ذلك الابن الوحيد الذى وعد به فما شك ولا فى ذلك الوقت ولم تغلبه الهواجس القـادرة أن تشـكك من ليس يكون مستفيقا ولا مستيقظا وقد كانت كثيرة فأولها هذا الأمر بعينـه اترى يا الله تقبل ضحايا هـذا مقدارها ويوعز الى الآباء أن يقتلوا أبناءهم ويقضوا على عمرهم بموت مريع وأن يدفعوا بنيهم الى الهـلاك قبل أوانهم أيليق أن تأمرهم بان يقتلوا بأيديهم المولودين منهم وأن يصبغوا مذابحك بدم هذه صفته وتريدهم أن ترفع يمين أبوتهم سلاحا على وحيـدهم ويشـاء أن يكون الصديق أصعب القـاتلين فعـلا ؟ وتأتى بعد ذلك عواطف طبيعته عند انزعاجها لأنه ما كان أبا فقط لـكنه كان أبا لابن غير عادى ابن وحيد حسن المنظر جميل التفطن فى زهرة سنه مكمل بجمال نفسه وبحسن جسمه عظيم فى اخلاص وده لأنه قـد أعطى أباه حياته ذاتها بلا معارضة · ومن شـأن البنين الذين هـذه حالهم أن يتزايد الشوق اليهم لاسيما اذا كانوا كاسحق وهب بعد ضـياع الرجاء خلافا لنظام الطبيعـة · وفوق هذه كلها كان وعد الله أكثر الأسباب استدعاء للشك لأن الموعد كان ضد الأمر الصادر وذلك أن الوعد الذى وعد به كان على هـذا المثال · أن يكون نسلك كنجوم السماء والأمر الذى أمر به كان أن يميت ابنه الوحيد الذى اعتزم أن يملأ منه كافـة المسكونة التى تجاوره وأن يدفعـه الى ذبح شنيع ولـكن ما تشكك الصديق على هذه الجهة ولا ارتجف ولا عرض له عارض غير لائق مما يعرض لأناس من الفاقدين ايمانهم ولا قال لذاته ماهذا لقد خدعت ولقـد طغيت بهذا الأمر أمر الله هيهات أن يكون ذلك لست أقبل أن أصير قاتل ابنى من الممتنع أن أصبغ يمينى بدم هـذا الوحيد كيف يتم الوعـد مع موته اذا اقتلعت الأصل من أين تكون الأغصـان اذا استأصلت الشجرة من أين تكون الأثمـار اذا طمرت العين من أين تجرى الأنهـار اذا ذبحت ابنى من أين يحصل لى كثرة البنين المعـادلة كثرة النجـوم لأن الموعـد يضـاد هـذا الأمـر الا أنه ما قال قـولا كهـذا ولا خطرت بوهمـه أفـكار كهـذه لـكنه لجا الى قدرة واعده هـذه الدقيقـة حيلتها السريع نفوذها اللامعة بأضدادها المستعليـة فوق شرائع الطبيعـة الأوفر اقتـدارا من البرايا كلها التى ما تمتلك صنفا مضادا لها وتمم هـذا الفعل الذى أمر به بتيقن كثير وذبح ابنه وخضب يمينه بدمه وصبغ به سكينه وأوصل سكينه الى عنقـه ولئن لم يكن ذلك بالفعل الا أنه بنيتـه قـد تمم هـذه الأفعـال كلها ولـذلك تعجب موسى النبى وقال هذا القول عنه :

« ان الله امتحن ابراهيم وقال له خذ ابنـك المحبوب اسحق الذى قـد احببته وقربه لى على احد الجبـال التى أصفها لك انا » اهذه الألفاظ تتفق والموعد وبشارات الوعد القائلة انك ستكون أبا لجماعة من البنين وسيكون نسلك كنجـوم السماء انظر كيف بعـد هذه الألفاظ كلها أطـاع أن يذبح ابنه واقتبل ذلك وذبح ولده الذى منه توقع ان تكون له هذه الـكثرة من البنين وبادر الى ان يقتل هـذا ويذبحه ويقـدمه ضحية لله وبولس ايضا قد تعجب من هذه الجهة وكلله بهذه الصـفة وأذاع ذكره قائلا « بالايمان قدم ابراهيم اسحق ابنه وهو مجرب » ثم أرنا الفعل الذى فعله ما أعظمه وما أظهره من خلوص أمانته فاستتلى بهذا اللفظ « قـدم الذى قبل المواعيد وحيده » فلم يكن له ابنـان صالحان وانه توقع اذا قتل هـذا سيكون ابا لـكثرة بنيه من ذلك الآخر لـكنه انما امتلك هـذا وحده ومن هـذا وحده تعلقت عنـاصر الوعد الا انه مع ذلك اختـار ان يذبحه وكما انه فى الوعد بولادته لم يرتب من ضعف طبيعته ولا من ضعف طبيعـة امراته فـكذلك ما ضعف هنا بموته ٠

فتعلم هذه الأفعال وقايسها بالأفعـال الحادثة الآن فتبصر صغر نفسك وتعاين حقارتك لـكثرة ارتيـابك وتعلم علم يقينـا أن ولا من أى جهة من الجهات يمكن أن يشك فى عنـاية الله وسياستها لـكنك تشك لأنـك تلتمس دائما معرفة سياستها وتطالب بعلل الحوادث الحـادثة واحدة فواحدة ولو فعل ابراهيم هكذا لحاد عن ايمانه ولـكنه لم يبحث عمـا قيل له ولا فتش عنه فلذلك اشرق فضله وحظى بجميع ما وعد به ولم يشك فى وعد الله الأول ولا فى الأمر الذى أمر به بعـده ولا توهم أن ما أمر به قـد يكون مانعـــا للموعد ولا ظن أن التضحية تكون مبطلة للوعد ولا سقط الى اليأس من الوعد على انه قد حصل على نهاية ما وعد به بعينه ٠

ولا تقل لى هذا القول ان الله أمر ابراهيم بذبح ابنه ولـكنه كان عازما أن يمنعه عن ذلك لأن ابراهيم لم يعرف نيـة الله ولا أيقن أنه سيمتنع عن ذبحه ٠ لـكنه مد عزمه الى ذبحه ولذلك نودى باسمه مرتين من السماء لأنه ما قال له يا ابراهيم على بسيط ذات دعوته لكنه قال يا ابراهيم يا ابراهيم مكررا مناداته بشدة لعلمه بعزمه الأكيد على ذبحه وحاجزا اختياره المتدالى تضحيته ٠ على هـذا المثال كان فعله ولم يظهر منه البتة شك وعلة ذلك انه لم يبحث عن أغراض الله ٠

وما قولك فى يوسف العفيف قال لى افلم يتكبد مصايا هذه صعوبته لأنه كان قد أعطى من الله نعمة عظيمة من موعده وحصلت الحوادث الحادثة عليه أيضا اضدادا للمواعيد التى وعد بها لأن الوعد كان من شأنه أن يسجد له اخوته كما ظهر له فى حلمى النجوم والحزم الا أن العوارض التى عرضت له بعد هذين الحلمين كانت مضادة لكليهما فاولها حرب صعبة ثارت عليه فى منزل أبيه من اخوته بسبب حلمه فنبذوا شرائع الاخوة معه وفكوا مرابط ود النسبة وزعزعوا أوضاع طبيعتهم وصاروا أعداء محاربين اشد من تنمر الذئاب على أخيهم وبمنزلة وحوش وحشية فاقدة استئناسها قد جذبت فيما بينها خروفا فى وسطها كذلك كانوا كل يوم يتآمرون عليه وكانوا بهذه الحرب وحسدهم الفاقد القياس والظالم وبتحرقهم وبغضهم يدبرون طريقة قتله كل يوم اذ اضطرم هذا الاتون والتهبت هذه النار واذا لم يمكنهم أن يعملوا به عملا مكروها فى المنزل بسبب منزلته عند أبيه ثم حدث بعد ذلك أن وجدوه فى معزلة عن الحاظ أبيه وصادفوه فى البرية حاملا لهم طعاما موافيا الى افتقادهم فما احتشموا ولا خجلوا من مائدة أخيهم لكنهم ارهفوا سيوفهم ليقتلوه دون أن ياتى ذنبا ولكن بسبب الحلمين اللذين لأجلهما كان يجب أن يكللوه وأن يذيعوا ذكره فصاروا حاسدين له محاربين الا أن ذلك الفاضل وعلى هذه الحال ما ارتجع عن الفتهم لكنه اظهر وده اياهم فى حال خبثهم هذا الجزيل تقديره الا انهم نهضوا الى قتله وقد قتلته طائفة منهم وخضبوا يمينهم بدمه وتمموا قتل أخيهم الا ان حكمة الله وقدرته الدقيقة حيلتهما السريعة النفوذ فى العوارض العسر سلوكها اختلسته من أيديهم النجسة لأن الواحد من اخوته أشار عليهم بمشورةتبعدهم عن التدنيس بقتله فحقق الله مشورته ومنع ذبحه • وما وقفت لعمرى الشدائد مهنا لكنها نفذت الى أبعد غاية أيضا اذ لما منعوا من قتله غلى عليه غيظهم وتجددت افعال تحرقهم وكان نموذج شرهم عظيما فنقل غضبهم الى غرض آخر لأنهم جردوه من ثوبه وكتفوه وطرحوه فى جب أولئك الجفاة المتوحشين الزائلة انسانيتهم وجلسوا فتمتعوا بالمائدة التى حملها هو اليهم وكان هو فى الجب مرتاعا لأجل غايات ما يجرى عليه وأولئك قد تنعموا وسكروا وما وقف عند هذه الأفعال جنونهم لكنهم اذ ابصروا أناسا اجانب مسافرين الى أبعد من بلدهم منحدرين الى مصر تناولوا أخاهم فباعوه لهم مخترعين له من هذه الجهة موتا آخر أطول مدة مملوءا شقاء كثيرا لأنه كان صبيا متربيا بحرية كثيرة فى منزل أبيه بعيدا عن العبودية بالجملة ومن

الشقاء الذى فيها فتفطن ما هو المصاب الذى قاساه عن غفلة اذ صار بدل حر عبدا وبدل مدنى غريبا مصطبرا على أسر فى غاية الشدة فلم يقاس الم العبودية وحدها ولـكنه حصل منفصلا من أبيــه ومن أهله كلهم عاريا غريبا فاقدا منزله ومدينته لأن ما الذى لم يكن فيــه كفاية أن يزعجه وقـد أصابته هذه المصائب وهى مداهمة المصيبة اياه وعدمه انتظارها وحلولها به بخلاف أمله وخلوه من التدرب بها وصعوبة ممارستها وورودها اليــه من اخوته الذين كان يحبهم وما ظلمهم ظلما لا صغيرا ولا كبيرا بل الذين قد أحسن هو اليهم ولـكنه مع ذلك ما ارتجف ولا بعارض من هذه العوارض ٠

أما أولئك التجار فقد سيروه الى مصر فاستبدل عبودية بعبودية لأن هنالك أيضا صـار عبدا واسكن فى منزل مصرى وهو العبرانى الحسيب قد صـار الى حال مضعفة ولا ريب انه حينئذ تذكر حلميه اللذين بشراه باضداد ماجرى له ولـكنه لم يبحث قائلا ما السبب فى هذه العوارض الحادثة اذ بينما كان عبـدا كان الظالمون قاتلوه يتنعمون فى منزل أبيهم وهـذا الذى ارتجى له أن يتملك عليهم صـار عبدا مباعا أسيرا فى غايته مقاسيا أضداد ماوعد به لأن ما كان صعبا حينئذ أنه لم يحظ بالملكة فقط لـكن أصعب من ذلك أنه خاب من وطنه وحريته وعدم النظر الى أبيه وما وقفت مساعى آلامه لـكن حفرت له هنـاك هاوية أعمق قعرا حوت موتا وذبحا شنيعين وقد كان موتا يجلب عارا وذبحا ممتلئا خزيا لأن التى خـدمها أبصرته بعينين ظالمتين وصيدت بحسن الشباب واستباها بهـاء وجهه ونظمت له صنوفا من غشها واحتيالها وبسطت له شباك الفسق ولبثت ترصـده كل يوم داخل شـباكها وتلقيـه فى هاوية الفسق بها وتدفعــه الى موت قـد عدم أن يكون ميتـا وكانت كل يوم تبرز الى هـذا الاقتنـاص متسلحة بعشقها وحدث أنها وجدته فى وقت من الأوقات وحـده فاجتذبته الى المضجع الظـالم غصبا واضطرته أن يخوض زواجا غريبـا وارتاءت أن تفسـد عفتـه الا أن ذلك الصـديق ما أصابه من هذا العارض شىء لـكنه ظهر فوق اغتصـاب شهوته واراجيف حـداثة سنه وازعاجات شبيبته وشفق على نفســه من لمس تلك ومن نظرها ومن جفونها بسهولة كثيرة وصـار كنسر باسط جنـاح عفته العـالى وخلع ثيـابه وتركها فى يديها الفـاسقتين وخرج عاريا من ثيـابه مشتملا لبـاس عفته بهيا ظـاهرا حسنه أحسن من ديبـاجة الملك بعينهـا ٠ فهنالك ارهف له السيف أيضا واضمر له الموت اضمارا متتابعا ورفعت أمواجه أعظم رفعا

لأن جنون تلك المرأة وهيامها اضطرم اشد من اضطرام الأتون البابلى التهابا لأن شهوتها حينئـذ نهضت أعظم نهوض وغضبها الذى هو مرض آخر أصعب امراض هواها صـوبته بوحشية كثيرة عليه ونظرت الى قتله وسارعت الى السيف وجمحت الى ذبحـه وقـد كان ازوغ الأعمـال عن الشريعة واجتهدت أن تقتل المجاهد ضد الشر المناضل بالصبر والثبات وبادرت الى رجلها وأخبرته بما جرى عليهـا ليس على حذو ما اشتملت عليه حقيقـة أمرها وفعلها ولكن على نحو ما قـد اخترعته حيلتها بخبثهـا وحققت عنـده ما أرادته بثلبهـا كمظلومة وطلبت الانتصـار منه لها حاملة بيـديها النجستين ثيـاب الشاب برهانا لمـا قرفتـه به فما استحضر ذلك القـاضى الطائش رأيه الى مجلس حكمه ذلك الشاب المثلوب ولا سمع منه كلمة ولـكنه حكم على من لم يحضر مجلس حكمه كما على شرير مشهرا أمره وحبسه فى الحبس وغله بسلاسل وصـار أسيرا مع السحرة ومع اللصوص ونابشى القبور مع قاتلى النـاس مع المتجاسرين على الأفعـال الواصلة الى الغـاية القصوى من قباحتها الا أنه مع ذلك أزعجه عارض من هذه العوارض ولبث فى السجن معاقبـا على محامده التى كان واجبا أن يكلل لأجلها ويشاد بذكرها ٠

وفضله ظهر فى أنه ما ارتجف ولا فى هذه الحال ولا قال ما هو هذا الذى انتظره ان أملك على اخوتى ؟ ما خبت فقط من هـذه الـكرامة لـكننى قـد خبت من وطنى ومن منزلى ومن والدى ومن حريتى ومن راحتى وقبيلتى الذين املت أن يسجدوا لى ثم بعد ذبحهم اياى باعونى وصرت عبـدا وما وقفت الملمات فى هذه الحوادث لـكن الهوة لدى فى سائر المواضع والصخور تعثرنى فى كل مكان لأن بعد اغتيال اخوتى لى وذبحهم اياى وبعد استعبادى الأول والثـانى اخترع لى موت أصـعب من الأول لأنه انشـأ لى اغتيـالا وتشريدا ومجلس قضـاء وتغيرا فيـه خزى كثير وذبح ولد لى ذبحا موجعا ودون أن أطـالب بجواب حملت الى الحبس وطوقت بسلاسل مع اشر الناس نوعا ورئيس السقاة تخلص من سلسلته ومن حبسه وأما أنا فمـا قـدرت أن استمتع بعـده ولا بصنف من راحتـه ذلك خرج كما فسرت له حلمـه وأنا فحاصل فى ملمات رديئـة قـد عدمت تلافيها أفهذه الشدائد هى التى تقدمت تلك المنـاظر فـدلت عليها أهذه النوائب أوضحها عدد النجوم أهذه المصائب بينتها الحزم أين دلائل المواعيـد أين علامات البشارة أتراني انخدعت الحلى انطغيت لأن كيف يسجد اخوتى فيما بعـد للعبـد الأسير المعتقل المظنون انه

فاسق المتورط فى خطر الشـدائد الواصلة الى نهايتها · لقـد ضـاعت تلك البشارة واهلكناها الا أنه ما ذكر من هذه الأقوال صنفا ولا تفطن فى خاطر منها لـكنه صبر الى الغـاية عارفا دقـة حيلة الله تعـالى بعينها وحكمته السريع نفوذها وليس مستعجبا أنه ما تشكك فقط لـكن أعجب من ذلك أنه فاخر بالحوادث الحادثة عليه ·

وما قولك فى داود النبى أفما قاسى أصعب الملمات مراسا بعد أن مسح ملكا وبعد أن تسلم قضيب الملك على رهط العبرانيين باختيـار الله جل ذكره وبعد أن ظفر ذلك الظفر المبهر بجليات صـار شاول يحاربه مرسلا اياه الى حروب شـديد خطرها مطرودا الى البرارى طردا متصـلا تائها هاربا خائبـا من مدينته ومنزله مقيما عند الغرباء المحاربين قبيلتـه الأوفر عـداوة لرهطـه مصطبرا على حياة أصعب من العبودية مراسا لأنه كان من طعامه الضرورى معوزا وهـذه المصـائب قاساها بعد حضور صموئيل وبعد دهنه اياه بالزيت المقـدس وبعد وعده ايضا اياه بالملـكة بعـد تحصيله عصاة التملك وتاجه بعـد انتـداب الله له واختياره ومع ذلك فمـا ارتاب بعـارض من هـــذه العوارض ولا قال أين ذلك الذى انتظره انا الملك المرتجى أن اتمتع برياسة هـذا مقـدار سموها ولم أصر فردا بعيـدا عن الملك فقط لـكننى قـد صرت تائها هاربا عادما مدينتى ومنزلى طائرا حاصـلا فى بلد الغرباء معوزا من طعـامى الضرورى أصـاب بهذه النوائب كل يوم اتورط فى الخطر ملفوظا بى أين مواعيد التملك أين تلك الرياسة الا أنه ما قال قولا من هذه الاقوال ولا تفطن فيـه بفكره ولا تشكك بسبب الملمـات التى تأتيـه لـكنه اصـطبر منتظرا نهاية المواعيد ·

وقد يتجه لى أن أصف أناسا جزيلا عددهم غير هؤلاء سقطوا فى نوائب صعبة وما ارتجفوا لـكنهم تمسكوا بمجد الله عز وجل وان كانت النوائب العارضة لهم قـد عرضت اضدادا للمواعيد التى وعدوا بها وتكللوا بالأكاليل التى هى بهية حسنها لأجل صبرهم هـذا الواصلة جودت الى غايتها فتصبر أنت أيها الحبيب الى الغـاية فانك ستصل على كل حال اليها اما فى هـذه الدنيا واما فى الدهر المـأمول واخضع لسياسة عناية الله الفائق ادراكها مراعيا احوالك ولا تقل كيف تأتى هذه النوائب ولا تفتش عن مذاهب أعمال الله البديعة فى ذاتها ·

البـــاب الحـــادى عشر

فى أن بداية أعمال الله كثيراً ما تخالف نهايتها

وأن الصديقين أبصروا فى الابتداء العوارض كلها مضادة لآمالهم

لأنه ولا أولئك الذين تحقق فضلهم ماطلبوا معرفة مالم يفهموه من أعمال الله لـكنهم اذا رأوا الحوادث كلها تفضى بهم الى القنوط واليأس من لدن الفكر الانسانى لم يرتجفوا على هـذه الحال ولم يتشككوا بل تحملوها بأوفر شجاعتهم مؤمنين باقتدار من وعـدهم منتظرين منحه العاليـة التى أملوها ولم يهبطوا الى اليـأس من تلقـاء مضادة الحوادث التى مارسوها الا أنهم علموا علما يقينـا أن من وعدهم دقيق الحيـلة يقتدر بفعل حكمته بعد اليأس من الأحوال أن يستعيدها أفضل مما كانت سالفا · فان حصلت أنت أيهـا الحبيب فى حال كهذه فمجـد الله كثيرا وان نقضـت عمـرك فى الملمـات المستصعبة فاشكر له على هـــذه الحـال ولا تشكن أصلا لعلمك بعنـــاية الله علما واضحا ومعرفتك لسياسته الفائقة معرفتها التى ما يقتدر المخلوقون على معرفتهـا ولا ترجمتهـا · وايقـانك أن نوائب الدنيـا كلهـا سـتنال الغـاية وانها لا تقـاس بالمجـد العتيد أن يستعلن فينـا وأن لا مقارنة بين أمانى الحياة الحاضرة ·

فان سمع سامع ذكر المـكافأة المرتجاة وتضجر من طول المدى وحاول أن يعرف ما سيكون له فى هذه الدنيا فنقول له ان الحياة الصادقة والأحوال الحقيقية الفاقدة تزعزعها تنتظرنا لأن حياتنـــا الحاضرة طريق وتلك وطن والحظوظ التى هنـا تماثل أزهار ربيعيـة والتى هنـاك تشـابه الصـخور الممنوع تزعزعها فالأكاليل هنـاك وأنواع المـكافأة هنالك الجوائز ورايات الظفر هنـالك العـذاب والعقوبات لفاعلى المساوىء ممـا يمتنع احتمالهـا فلا تظن أن التوفيق فى الحيـاة يعطى الانسان ايمانا بل يوجد كثيرون بعيدين عن الايمـان فى وسط تنعمهم وآخرون يؤمنون وسط المصـائب العـــديدة وكثيرون قد تعرقلوا الا أن معظمهم قد وقفوا وثبتوا وجمعوا لأنفسهم ثوابا أعظم نفعا وما انقلب عزمهم لا باقتـدار الذين اغتـالوا عليهم ولا بصعوبة

أزمانهم والمفتونون فليفكروا فى نفوسهم أن الثــلاثة الفتيـــة اختلعوا من أملاكهم الطاهرة ومن هيكلهم ومحرابهم ومن اهتمامهم الآخر كله الذى فى شريعتهم وخلدوا فى وسط بلد غريبـــة فحفظوا شريعتهم بأبلغ استقصائهم وحفظها دانيال النبى نظيرهم وآخرون كثيرون واقوام لمـا ساروا فى السبى بالأسر ما ضرهم ذلك ضررا وأناس غيرهم لبثوا فى منازلهم وتمتعوا بكافة الخيرات التى فى وطنهم فعصوا الله وأوجب الحكم عليهم ·

البـــاب الثــانى عشر

فى قول قائل لم أبقى الله فى العالم الناس الخبثاء والشياطين وابليس المحـــال

فان خرجت من البحث فيما مضى وأردت ان تبحث أيضا فى أعمـال الله فانك تجد فيها أشياء عديدة تحير فهمك فتقول لم أطلقت البدع فى الدين لم أهمل ابليس المحال لم تركوا الشياطين ههنا لم استبقى الخبثاء من الناس الذين يعرقلون اناسا كثيرين ونبحث عن رأس هـذه المطالب كلها لم يعطى معاند المسيح الحاوى مقـدرة هـذا مبلغها لأطغـاء النـــاس تبلغ الى أن يقول المسيح « انه يضل ولو أمكن المختارين » لـكننا ما ينبغى لنـا أن نطلب هـذه الغوامض لـكن سبيلنا أيضا أن نطلق لفعل حكمة الله الممتنع ادراكه مراعاته لأن الانسان المتعود الاقامة فى الاصـقاع البـاردة ان وافته أمواج جزيل عددها وان تقاطرت عليه أمطار كثيرة فليس مستعجبا أنها لا تضره فقط لـكن أعجب من ذلك أنه يصير أقوى مما كان بأسا والضعيف المتراخى المتضجر طالمـا سقط من غير أن يؤذيه أحد وان ابتغيت أن تعـرف وصـفا يوضح هـذا فاسمع جوابا معروفا عنـدنا لأن أقوالا كثيرة توجد واضحة بينـة عند مدبرى الأحوال كلها تدبيرا مختلفا فالذى قـد عرفنـا نحن فهو هذا الا أننـا نقول ان هذه الشكوك توجد حتى يزداد ظفر الأبطال الصناديد وهذا الغرض أوضحه الله عز وجل حين جاوب أيوب قائلا أتظن أنى أنزلت بك النازلة لغرض آخر الا لكى تستبين عدلا وبولس الرسول قـد قال انه يجب ان يوجد فيما بينكم بدع الاختبـار والهوى ليصـير المختبرون فيكم ظـاهرين فاذا سمعته أنت يقول يجب أن يوجد بينكم بدع الاختيـار والهوى فلا تظنـه قال هذا القول موعزا بهذه البدع أو مشترعا اياها أبعد هذا الوهم عنـك

لـكنه تقـدم فـذكر مايرتجى كونه وسبق فعرف ماكان فيه من الفائدة من هذا الوجه لأنه قال حينئذ تستبين لـكم الفضيلة أبين وضوحا ٠

وهكذا فالخبثاء يستبقون لأجل علة اخرى لهم فكثيرون منهم تجوا قبل موتهم فبولس الرسول على هذه الطريقة خلص واللص على هذه الحال وكذا الزانية على هذه السجية استخلص والعشار بهـذا الغرض تخلص وأناس آخرون كثيرون فلو كانوا اختطفوا من هـذه الدنيـا قبل انتقالهم لمـا كان استخلص ولا واحد منهم وبولس الرسول قـد ذكر لنـا في وصف معـاند المسيح علة أخرى وان سألت وما هى هذه العلة أجبتك هى التى تحجز عن اليهود من هذا الوجـه كل احتجاج لأن أى عقل وأى عفو يحصل لهم ان لم يقتبلوا المسيح الهنـا وهم متوقعون أن يؤمنوا بذلكفلذلك قال حتى يوجب الحكم عليهم كلهم ان لم يصـدقوا الحق الذى هـو المسيح لـكنهم ارتضـوا بالظلم لأنهم لم يؤمنوا بالمسيح لمـا قال عن ذاته انه اله قالوا لهذا السبب نرجمك بالحجارة لأنك وأنت انسان افتجعل ذاتك الها على أنهم قد سمعوه برفع أكثر أفعـاله الى أبيه بعينه وقائلا انه انما جاء برأى أبيه مبرهنا قوله هذا بشواهد كثيرة فما الذىيقولون اذا اقتبلوا معاند المسيح القائل عنذاته انه اله ولا يذكر أبا لـكنه يعمل بخـلاف ذلك بقوله عن ذاته انه اله وهـذا الفعل قـد تقـدم المسيح الهنـا فعيرهم به وقال هـذا القول أنا جئت باسم أبى فما قبلتمونى فاذا جاءكم آخر باسـم ذاته اياه سـتقبلون لأجل هـذه الأغراض تستبقي الشكوك فان ذكرت الى الذين تشككوا وفتنوا اذكر لك أنا الذين اشرق فضلهم من هـذه الجهة اشراقا عظيما وأقول لك أيضا هذا القول بعينه أنه ما يجب لأجل جهل أناس آخرين وزوال تيقظهم أن يهمل القادرون أن يستفيقوا ويتيقظوا ويتكللوا من هذه المحن بأكاليل جزيل عددها لأن هؤلاء قـد تألموا ولـكنهم أخذوا من آلامهم سببا لنصرتهم وتمجيدهم وهم يوبخون من جعلوا الآلام سببا لـكفرهم لأن سيرتهم أوفر بهاء وأشد بأسا ٠

البـــاب الثـالث عشر

فى أن المستفيقين لا يضرهم عارض ولا يعرقلهم

لأن ابراهيم بأى كاهن اتعظ وبأى معلمين وبأية موعظة وبأية معاتبة وبأية مشورة تمتع لأن الـكتب ماكانت حينئذ ولا الشريعة ولا الأنبياء لـكنه سار بحرا قـد عدم المسير فيه وسلك طريقا قـد فقدت تمهيدها فهذه الأفعال ما أضرته ضررا لـكنه أشرق فى فضيلته اشراقا وصل فيه الى أن ابان العلوم التى أزمع المسيح الهنـا أن يعملها للناس بعد زمان طويل بعد الأنبيـاء بعد الشريعة والتأديب الجزيل تقديره الـكائن بآياته وعجائبه وسبق هو فأظهرها بأفعاله وأوضح حبـا خالصا حارا وأعرض عن الأموال وأشفق على اهله وابتعد عن كل الصلف واجتنب العيشة الرطبة عائشا عيشة أبلغ استقصاء من عيشة النساك الذين توجهوا الى قمم الجبال لأنه ماكان له بيت لـكن ظل اوراق الشجر كان سقفا للصديق واذ كان غريبا ما صـار فى ضيافة الغرباء وآتيا لـكن جعل هـذه الضيافة فى غربته عملا له دائما عند اقتبـاله فى الظهيرة المجتازين به وخدمته ولطفه بهم وتمم بذاته هـذا العمل كله وجعل امرأته شريكة له فى هذه التجارة النـافعة وما قولك فيما فعله مع ابن أخيه مع أن هذا لميحفظ له جميلا وذلك حينما غلب لوط منمجاوريه فترك ابراهيم راحته واستصحب جمـاعة غلمانه متدرعين سـلاحهم وزج ذاته فى خطر ظاهر • ولمـا أوعز اليه بترك منزله ومضيه الى أرض غريبه افما أطاع لوقته وساعته وترك وطنه وأصدقاءه ومناسبيه وأهله كلهم وأطاع ايعاز أمرهفترك أملاكه الواضحة وجنح الى أملاك عـدمت ان تكون واضحة لأجل وعد الله جل وعز ذكره وهكذا كان ما كان من امانته المتزايدة • وبعد هـذه الأحوال كلها دهمته مجاعة فمـا ارتجف ولا اضطرب لـكن اظهر طاعته هذه بعينها وكلمته وفلسفته وصبره وانحدر الى مصر وأطاع الله تعالى الذى أمره بهذه الأفعال وأمثالها واختلست منه امرأته وأبصرها مهانة فاصطبر على فجائع أصعب من الموت مراسا وانجرح فى أشد مقاتله خطرا لأن قل لى ماذا يكون أثقل من أخذ أعجمى لامرأته الى باطن دياره الملوكية فاحتمل هـذه النوائب كلهـا بأوفـر حلاوة ولم يتزعزع بل حفظ عزمه فى زمانى الشـدة والرخاء متساويا •

وما قولك فيــه حين وعد بابنــه ؟ أفلم تكن الموانع من أفـكاره جزيلا عددها فسكنها كلها وبطل الارتجاف الناشيء منها ولمع منها أمانته وفضله • وحين أوعز اليه أن يقدمه ضحية أفلم تكن حالك حال من يقـدمه الى عروسه؟ على هذه الطريقة قـدمه وخرج من طبيعته بعينها وتبرأ من أن يوجد انسانا ورفع ضحية جديدة بديعة وجاهد هذا الجهاد وحده وما شارك فيه امرأة ولا خادما ولا أحدا غيرهما ممن كان معه لأنه عرف تماما أنه ان أعلم أحدا بالأمر يحاول أن يمنعه عنه فلذلك مارس هو وحده هــذا السعى وخاض فيه واجتهد وتكلل وذاع ذكره فأى كاهن علمه هذه المحامد أى معلم أفاده اياها أم أى نبى ؟ لا أحـــد لــكنه اذ كان قــد امتلك نفسا حية عزمها قوى لهذا سار فى أفعاله حكيما •

وما قــولك فى نوح أى كاهن استصحب أم أى معلم ومؤدب لأنه لــا انفسدت المسكونة كلها بالخبث سلك هو وحده الطريق القويمة وحفظالفضيلة واشرق فيها هــذا الاشراق الذى أوصله الى التخلص من غرق المسكونة والى خلاص آخرين معه من مهاول الخطر التى أحاطت بالخليقة • من أية جهــة صــار صــديقا من أية طريقــة صار تاما وبأى صــورة تهـذب لا أحــد • وبعكس ذلك ابن هــذا الفاضل مع أنه كان قــد صــار له أبوه معلما داخل بيتــه بفضيلته واستمتع بوعظه وبألفاظه وعاين من أفعاله الغاية التىوصلت اليها وشاهد من المصيبة ردعها ومن الخــلاص منها عــدله ومع ذلك صــار خبيثا مستهجنا والده وأذاع عرى أبيه وشهرها •

أرأيت أن الحاجة في كل مكان الى نفس قوى عزمها ؟ وما قــولك فى أيوب قل لى من من الأنبيــاء سمع وبأى تعليم استنار • لم يستفد شيئا من أحد • لــكنه مع كونه لم يحفظ ولا بواحد من المعلمين أظهر كل صــورة من الفضيلة باستقصاء كثير فى ابداعها لأنه اشرك النــاس فى خبراته ومقتنياته وبذل لهم جسده بعينه واقتبل المسافرين فى منزله وكان منزله لهم اكثر مما كان لمالكه وانتصر بقوة جسده للمظلومين وابكم المتعنتين بفهم لسانهوحكمته وأظهر الطريقة الانجيلية لامعة بكافة أفعاله وبيــان ذلك أن المسيح قال جل قوله « طوبى للمساكين بالروح » فهذا التطويب احكمه بأفعاله عند قوله « ان كنت احتقرت قضــية غلامى أو جاريتى عند احتكامهما بحضرتى لأنى ماذا أعمل اذا تصفح الرب طريقتى أليس كما اكنت فى البطن كانا همــا فــكنا فى جوف هو ذاك بعينــه » وقال المسيح أيضــا « طوبى للودعاء فانهم يرثون

الأرض » ومن كان أوفر دعة من ذلك الفاضل الذى قال عبيده فى وصفه « عن يعطينا أن نشبع من لحمانه » فبهذه الصـــفة كانوا شديدى العشق له قال « طوبى للحزانى فانهم يتعزون » وأيوب ما كان خائبـا من هــذه الفضيلة اسمعه ماذا قال « وان كنت اخطأت كارها فخجلت من كثرة رهط شعبى عن الاعتراف لهم باجتنـابى الشريعة » فمن كانت هذه الحـال حاله فمن المبين أنه قــد كان ينوح بافراط فيــه كثيرا قال « طوبى للجيـاع والعطـاش الى البر » فانظر الى هذا الفعل محكما عنده بافراط فيه قال « كسرت أضراس الظالمين واختلست من وسط أسنانهم ما اختطفوه ولبست العدل وتسربلت الانصاف كمنطقــة » قال « طوبى للرحماء فانهم يرحمون » فهذا الفاضــل ماكان رحوما بأمواله فقط ولا بالباسه العراة واطعامه الجياع وتلافيه الترمل وستره اليتيم وتسليته جوائح طبيعتنا لـكنه كان رحوما مع ذلك يتحنن على كل فاقد قوته وقد كان بصورة أب مشاع لـكل أهل بلده يتحنن على مصائب واحد فواحد منهم فيتلافى بعضها وينوح على بعضها وبألفاظــــه وبتحننه وبأفعـاله وبدموعه وبكل حال كان يعضــد الــذين فى المصـــائب صـائرا لجماعتهم ميناء مشاعا ٠

قال المسيح « طوبى لأنقياء القلب فانهم يعاينون الله » فهذه الفضــيلة كانت له على حذو ما اتفق واسمع الله عز وجل شـاهدا له قائلا « انه انسان بار يتقى الله ويحيد عن الشر » قال المسيح « طوبى للمطرودين من أجل البر فان لهم ملكوت السموات » فقد صار له من هذه المحمدة سعة جهـاد ومنها اكتسب ظفره العظيم لأنه ما طرده أناس لـكن الشيطان القديم فى الشريعة طرده لأنه بعد أن أفرغ كافة حيله جاء اليـه وطرده من مسكنه ومنزله ووطنه وأمواله وأخرجه من قنيـاته وأبنـائه ومن صحة جسمه بعينها وطرده الى المزبلة ودفعه الى مجاعة صــعبة شدتها فضــلا عن النـاس الذين أوصلوا اليها أذاهم من نواح مختلفــة قال « طوباكم اذا طردوكم وعيروكم وقالوا فيكم كل كلمة شريرة كاذبين افرحوا وتهللوا فان أجــركم عظيم فى ملــكوت السموات » وقــد استمد من هــذا التطويب مجدا عظيمــا وبيـان ذلك ان الذين لحضروا عنــده حينئــذ ثلبوه بقولهم أنه انما عوقب من جراء ذنوبه واسهبوا عليه أقوالا كاذبة مملوءة من خبثهم لـكنه مع ذلك اذ شارف هؤلاء أن يتورطوا فى خطر اتهامهم اياه اختطفهم من الجائحه المسيرة من الله ولم يضطغن عليهم حقــدا ولا من أجل أمر الــكلمات التى قرفوه بها وفى هــذا

الفعل أيضا تمم تلك الوصـية « احبوا أعداءكم وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم » لأنه أحبهم وابتهل من أجلهم وأزال غيظ الله عليهم وحل خطيتهم على أنه ما سمع أنبيـاء ولا أناجيل ولا كهنة ولا معلمين ولا أحدا آخر مشيرا عليه بفعل الفضـيلة : أرأيت نفسه ما كان أعظم صبرها وكيف كانت كافيـة لذاتها من الفضيلة ولم تتهذب بتعليم غيرها ولم يرث من آبائه شيئا من الفضـائل لأنهم كانوا مظهرين رذيلتهم بكثرة حتى أن بولس الرسول قـد قال في وصف جسده « لا يكونن أحد منكم زانيـا أو مستبيحا كعيسو الذي باع بكوريته بأكلة واحدة » •

البـــاب الرابع عشر

« في أن الشكوك كانت في أيام الرسل كثيرة وأن المساقين الى العذاب كانوا أكثر وأن رؤسـاء الديانة ومجـامعهم كانوا مفـاجئين دواما بالقتل السريع » •

قل لي ما احتجاجك في هـذا المعنى اذ قـد حدثت في أيام الرسل حوادث كثيرة مثل هـذه واسمع ما قاله بولس الرسول أنه « قد رجع عني جماعة الذين في آسيا منهم فيجالوس وهرموجانس » وهكذا نجد أن المعلمين المسيحيين قـد سكنوا السجون وقاسوا من أهلهم ومن الغرباء منهم فوادح في غاية الشدة وقاومهم معلمون كذبة أشد من الذئاب افتراسا وقـد تقدم بولس فـذكر هـذه الحوادث لأهل أفسس اذ استحضرهم الى جزيرة ميليتس وقال لهم « أنا قـد عرفت أنه سيدخل اليكم بعد انصرافي ذئاب لا يشفقون على الرعية ومنكم أنتم سيقوم رجال يتكلمون أقوالا مقلوبة ملتوية ليجتذبوا التلاميذ وراءهم » افمـا اظهر له الاسكندر النحاس شرورا جزيلة وطارده في كل مكان وحاربه وقارعه وأوقفه في جهاد هذا مبلغ تقديره أفضى به أن يوصي تلميـذه ويقول له احترس منـه فانه قـد عاند أقوالنا كثيرا •

أو ما أفسد أناس من الرسل الـكذبة أمة الغلاطيين بجملتها وانعطفوا الى اليهود ايضـا أو ما رجم استفانوس جزاء منـاداته بالايمان • ألم يقطع هيرودس رأس يعقوب ليرضي اليهود أعداء المسيحية وهكذا من كل ناحيـة ثارت زوابع الفتن والقـلاقل حتى أثرت على كثيرين الا أن المتمكنين فيالدين

ثبتوا واسمع ما يقوله بولس اذ يناشد أهل فيلبى « أريدكم أن تعلموا ياأخوتى أن احوالى قـد اقبلت الى نجاح البشارة أكثر وأزيد حتى أن الاكثرين من اخوتنا فى أمانة ربنا عند ثقتهم بوثقى وتعويلهم عليها يتجاسرون خلوا من خوف أن يتكلموا كلام اللهبأوفر مجاهرة » أعرفت شجاعتهم أعرفتمجاهرتهم أرأيت قـوة يقينهم أرايت عـزمهم ؟ قـد أبصروا معلمهم فى الحبس مطوقا بسلسلة مخنوقا مؤذى مقاسيا مصائبجزيلا عددها أنهم مافتنوا ولا تشككوا ولا ارتجفوا فقط لـكن أعجب من ذلك أنهم أبدوا نشاطا أعظم واتخذوا آلام معلمهم سببا لنجاح جزيل بجهادهم ٠

ولـكنك تقول لى الا أن أناسا آخرين انسحبوا الى ورائهم فأقول لك نعم لست أقاومك أنا فى ذلك وفى كل زمان يوجد كثيرون اذا حدثت هـذه الحوادث انسحبوا الى ورائهم ولـكن ما قـد قلتـه دفعات كثيرة أقوله الآن سبيلهم أن يحسبوا هذا الارتجاع الى الوراء لأنفسهم ولا ينسبونه الىطبيعة الحوادث لأن المسيح الهنا حين مضى من هنا خلف لنـا هذا الموث اذ قال « فى العالم سيكون لـكم ضيق وستقادون الى حضرة ملوك وأمراء وسيكون زمان يظن فيه كل من يقتلكم أنه يقرب لله قربانا » ٠

فمن هذه الحكمة نفهم أمر الذين تشككوا فى كل زمان ليس فى عهـد الرسل فقط بل ان كثيرين تشككوا بصلب سيدنا بعينـه وسيد الـكل وصاروا ازوغ من غيرهم عن الشريعـة وأكثر جسارة على نقضها حتى أنهم عنـد صلبهم اياه قرعوه قائلين « يامن ينقض هذا الهيكل ويبنيه فى ثلاثة أيام » خلصت آخرين فلماذا لا تخلص ذاتـك » « ان كنت ابن الله فانحـــدر من صليبك فنؤمن بك » الا أن هؤلاء لا ينبغى أن يحتجوا بعثرة الصليب وجهالته وذلك أن اللص يوبخ هؤلاء كلهم وامثـالهم لأن ذلك قـد أبصره مصلوبا معه فليس عجيبـا أنه ما تشكك فيـه لـكن أعجب من ذلك أنه اتخذ من هذه الجهة لتكريمه موضوعا عظيما للتفلسف واعتلى أعلى من الأوهام الانسانية كلها وخف وارتفع بريشأمانته وتفلسف منالحظوظ المأموله لأنه اذ أبصرهمصلوبا باليا مضروبا مهانا وشاربا مرارة مبصـوقا عليه يستهزىء به محفل جزيل عـدده ؛ قـد أوجب الحكم عليه مجلس القضـاء مسوقا الى عقوبة الموت فمـا تشكك بصنف من هـذه الأصـناف لـكنه اذ أبصر صليبه ومساميره واستهزاء جزيلا تقـديره من كثرة الحاضرين والمجتازين المنفسد رأيهم سلك هو الطريقـة القويمة قائلا « اذكرنى يا رب اذا جئت فى ملـكوتك » وايكم

اللص الثالب اياه واعترف بخطاياه وتفلسف فى وصف القيامة وهذه كانت افعاله وما أبصر موتى مقامين ولا برصا مطهرين ولا بحرا ملجما ولا شياطين مطرودين ولا عرج مقومين ولا الجرائح الأخرى التى شاهدها رهط اليهود الزائل شكرهم وفهمهم وبعد أن أبصروها صلبوه لكن هذا اللص ابصره مصلوبا واعترف به الها وذكر مملكته وتفلسف فى النعم المأمولة وأولئك أبصروه مخترعا عجائبه واستمتعوا بتعليمه الكائن بأقواله وبأفعاله فلم يرفضوا المعرفة فقط لكنهم هبطوا مع ذلك الى هاوية هلاكهم الواصلة الى غايتها اذ صاروا به الى صلبيه ٠

أرأيت أن الزائل فهمهم المتوانين فى خلاصهم ما يستفيدون من الفوائد النافعة نفعا والجيد عزمهم المستفيقين من الأفعال التى تشكك آخرين غيرهم منها ينتفعون هم أعظم المنافع بها وهذا الحادث تبصره في يهوذا وفى أيوب وذلك أن يهوذا ما استمد خلاصه ولا من المسيح الذى أنقذ المسكونة وخلصها وأيوب فما أخره ولا ابليس المحال الذى أهلك أناسا هذا مبلغ كثرتهم لكن أيوب بعد أن قاسى آفات وبلايا جزيلة عددها كلل ويهوذا بعد أن عاين الآيات وعملها وانهض أمواتا وطرد جبنا بعد أن أخذ السلطان وسمع أقوالا كثيرة فى وصف ملك السماء وفى نار جهنم الذى شارك مائدة المسيح السرية وساهم التلاميذ العشاء الذى استمتع بمودة وعناية هذا تقديرها كما تمتع بها بطرس ويعقوب ويوحنا واليق ما يقال وأكبر منها بمقدار كثير لأنه فوض اليه حفظ أموال الفقراء ٠ هذا البائس توسوس حينئذ بعد هذه الصلاة الجزيل تقديرها واقتبل الشيطان في سريرته بحب الفضة وصار دافعا وعمل رأس الأعمال الرديئة اذ باع دما جليلا قدره بثلاثين من الفضة وأسلم سيده بقبلة ٠ كم أناس تظن أنهم شكوا فى المسيح اذ عاينوا تسليمه الصائر بتلميذه ؟ وما قولك فى من كانت البرية مدينته ثمرة العاقر ابن زكريا المؤهل أن يعمد تلك الهامة المقدسة الصاير سابقا لسيده حين سكن فى الحبس حين قطع رأسه وصار ذبحه أجرة لرقص زانية كم أناس تظن أنهم تشككوا حينئذ مما جرى عليه وما معنى قولى عن الذين تشككوا فى ذلك الحين كم أناس الآن بعد زمان هذا مبلغ تقديره اذا سمعوا اخباره هذه يتشككون ولماذا أذكر يوحنا وحبسه وذبحه وأذكر أيضا عبيد ربنا ولا التجىء الى سيدى وسيد الكل ٠

البـــاب الخامس عشر

« في أن الفاقدين فهمهم قد تشكوا من رأس الفوائد الصالحة »

« اعنى من الصليب الذى به أنقذت المسكونة »

وبيان ذلك أن صليب المسيح الهنـا الذى قوم المسكونة وتلافاها الذى جعل الأرض سماء الذى قطع أوصــاب الموت الذى جعل الجحيم عاطلا من الانتفاع به الذى هــدم قلعــة ابليس المحال الذى أبكم الشياطين الذى جعل النــاس ملائــكة الذى نقض محاريب الأصــنام وقلب هيــاكلها الذى غرس فى الأرض هذه الفلسفة الجـديدة المستغربة الذى صنع الأفعـــال المريعــة الجسيمة العاليــة أفلم يصر لأناس كثيرين شكا وفتنــة أوليس بولس الرسول يهتف كل يوم دون أن يخجل فيقول نحن نناديبمسيح مصلوب قد صار صلبه شكا عند اليهود وحمــاقة عند الأمم فقل لى ما رأيك أفمـــا كان يجب أن يصلب المسيح أماكان واجبــا أن تقـدم تلك الذبيحة السامية أماكان يجب أن تتم أحكام هــذه المحـامد الجزيل تقــديرها لأن فعلهــا صــار شــكا عنــد الهالكين فى ذاك الحين وفيما بعــد وفى مدى الزمان كله ؟ ان الشــك لم يتكون من طبيعــة الصليب لـكنه انما يتكون من غبــاوة الـذين تشــككوا ولهــذا الغرض استثنى بولس بهـذا القول فالمسيح عنـدنا نحن المؤمنين من اليهود والوثنيين قــدرة الله وحكمتــه ٠ ان الشمس من طبيعتهــا أن تضر العيون الضعيفة أفلأجل ذلك كان ينبغى أنلاتكون هناك شمس؟ والعسليتبين عند السقماء مرا فمــا رأيك أيجب أن لا يوجد ؟ والرسل أنفسهم أفما حملوا لأناس كلمة الموت لموتهم وقد صاروا لأناس كلمة من الحيوة لحياتهم أفمن أجل الهالكين لا يجب أن يستمتع الأحياء باهتمام هذا تقديره ؟

وورود المسيح بعينه الذى هو خلاصنا عين النعم الصالحة وحياتنــا الذى أفادنا الفوائد الجيــدة الجزيلة عددها كم أناس صــار ثقيلا عليهم كم اناس منع قبول عــذرهم والعفو عنهم ألم تسمع ما قاله المسيح عز قوله من أجل اليهود « لو لم أجىء لأخاطبهم لمــا كانت لهم خطيئــة » ٠ والآن فمــا يملكون احتجاجا عن خطيئتهم فما رأيك اذ صارت خطاياهم مسلوبة الاعتذار عندهم بعد وروده أفمــا كان واجبــا أن يجىء بسبب أولئك الذين استعملوا

الدواء النافع استعمالا رديئا ؟ ومن يقول هـذه الأقوال ولا واحد من الناس ولا من الذين قـد زاغ تمييزهم جـدا · قل لى ماهو الضرر النـاشىء من الـكتب كم أناس تشككوا منها كم بدع فى الدين تولدت من هذهالجهة أفيجب ان تمحى الـكتب بسبب المتشككين أوكان واجبـا أن لا نعطاها فى الابتداء؟ كلا قد كان واجبـا أن نعطاها بسبب المعتزمين أن يستثمروا المنفعـة منهـا ولست أكف أيضا عن أن أقـول تلك الأقـوال بعينهـا سبيلهم أن يحتسبوا الشكوك لهم وينسبوها الى أنفسهم · والمزمعون أن ينتفعوا منها المنـافع العظيمة كانوا قـد تـكبدوا خسارة ليست بيسيرة لأنهم عذبوا بسبب ونيـة غيرهم وزوال ادراكهم ·

البـــاب السادس عشر

فى انه ليس يقتدر عارض أن يضر من لم يظلم هو ذاته

قل لى ما الذى أضر هابيل اذ غدرتبه يد قايينأخيه وقاسى موتا بشعا سابقا وقتـه أوليس اليوم أن يقال انه ربح كثيرا اذ تكلل اكليلا أبهى حسنا؟ ما الذى أضر يعقوب اذ قاسى من أخيه مكاره جزيل مقدارها اذ عدم منزله ومدينته هاربا صـائرا عبدا وحصـل فى شدة عظيمة · ما الذى أضر يوسف اذ صـار نظير ذلك فاقـدا لـمدينته ومنزله صائرا عبدا أسيرا معتقلا وتورط فى الخطر الى أقصـاه واصطبر على مثالب هـذه صـفتها فى منزله وفى غربتـه · ما الذى أضر موسى اذ قرفه رهطه الجزيل عدده دفعـات كثيرة وتذمر عليه الذين أحسن اليهم · ما الذى أضر الأنبيـاء كلهم اذ قاسوا من اليهود مكاره كثيرا عـددها · ما الذى أضر يعقوب اذ حاربه ابليس المحال بحيله التى هـذا مبلغ كثرتها · ما الذى أضر الثلاثة الفتيـة ودانيـال أذ قاسوا أشد الخطر فى حياتهم وفىحريتهم وفى النوائب الأخرى التىدهمتهم· ما الذى أضر ايليـا النبى اذ عاش فى فقر شـديد فى أقصى غايته مطرودا هاربا ساكنا البرارى صـابرا طائرا متنقلا دائما · ما الذى أضر داود اذ قاسى من شـاول نوائب جزيلا تقـديرها وتكبد أخيرا من ابنه مصاعب هذا تقديرها أفما أشرق فضله أكثر اشراقا · بل انه حينما قاسى المكاره الى أقصى غايتها كانت أنفع له من الوقت الذى تمتع فيـه برخاء أيامه ويسرها · وما أضر يوحنا اذ قطع رأسه · ما الذى أضر الرسل اذ بعضهم قطعت رؤوسهم

ودفعوا الى عقوبات أخرى جزيل عددها · ما الذى أضر الشهداء اذا انفصلت النفس منهم بعـــذاب شـديد وليس هـؤلاء كلهم الذين أشرق فضلهم حين اضطهدوا وحين قاسوا الشدائد فى أقصى غاية ووقفوا وقوف الأبطال ·

البـــاب الســابع عشر

فى أن الصليب مثال لعناية الهنا العظيمة بنا ولصلاحه وحبه ايانا

فاذا سبحنا سيدنا العـام سؤدده لأجل نعمه الأخرى كلها ألسنا نعجب لأجل هــذا الانعام أكثر ونمجده منذهلين منه لأجل صليبه · لأجل موته ذلك الموت اللعين الذى كان قـديما أوليس بولس الرسول يجعل موته هذا علامة لحبه ايانا من كل وجه لأنه مات من أجل أناس ارديناء؟ لم يذكر أن الله اعتنى بنـا فخلق لنـا السماء والأرض والبحر والبرايا الأخرى كلها التى خلقهـا لحاجتنا وراحتنـا لـكنه ذكر الصليب دائما قائلا « ولـكن الله بين المسيح محبته لنـا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنـا » ومن هـــذه الجهة يزيدنا آمالا صـالحة بقوله هذا القول « لأنه ان كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنــه فبالأولى كثيرا ونحن مصالحون نخلص بحياته » (رو ٥ : ٨ ــ ١٠) أوليس بهذا الصليب المعتز عنده كثيرا احتمل كل ثقل وبه أفتخر افتخارا عظيما وتلذذ للغاية اذ كتب الى أهل غلاطية هذا اللفظ « حاشا لى أن أفتخر الا بصليب ربنـا يسوع المسيح » ولا سبيل لتعجبنـا من قول بولس هــذا وفرحه بالصليب وافتخاره وتجمله به لأن الرب الذى تألم عليه يدعو الى هذا الفعل مجدا لأنه قال جل قوله « أيهـا الآب قد أتت الساعة · مجد ابنـك ليمجد ابنـك أيضا » (يو ١٧ : ١) كتب هذه الألفاظ وقال هذا القول قبل أن يأتى الروح القدس لأن يسوع ماكان بعد قـد مجد اذ دعى الصليب مجدا وحين شاء أن يتبين لنـا حبه ماذكر آياته وبدائعه البتة لـكنه أورد صليبه الى وسط كلامه عند قوله على هذه الحال « هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنــه الوحيد لـكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحيـاة الأبدية » (يو ٣ : ١٦) وقـد قال بولس الرسول أيضا « الذى لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنـا أيضا معه كل شىء » (رو ٨:٣٢) ولمـا وعظنا واستمالنا قال « فان كان وعظ مافى المسيح ان كانت تسليـة ما للمحبـة ان كانت شركة ما فى الروح ان كانت أحشاء ورأفة فتمموا فرحى

حتى تفتكروا فكرا واحدا ولكم محبة واحدة بنفس واحدة مفتكرين شيئا واحدا · لا شيئا بتحزب أو بعجب بل بتواضع حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم ثم أورد المشورة وقال هذا الرأى « فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى المسيح يسوع أيضا · الذى اذ كان فى صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله · لكنه أخلى نفسه آخذا صورة عبد صائرا فى شبه الناس · واذ وجد فى الهيئة كانسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب » (فى ٢ : ١ ــ ٨) واذ أشار علينا بالحب أورد هذا الصليب الى وسط كلامه فقال « فليحب بعضكم بعضا كما أحبنا المسيح وأسلم ذاته من أجلنا قربانا وضحية لله » ولما أراد أن يعبر عن كيفية محبة الرجال لنسائهم قال أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها » ولكى يرينا مقدار شوقه الى موته لأجلنا ليفتدينا أجاب بطرس حينما أراد أن يمنعه عن الصليب بقوله « حاشاك يارب » أجابه « اذهب عنى يا شيطان أنت معثرة لى لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » (مت ١٦ : ٢٢ و٢٣) موضحا بذلك مقدار حرصه على أن يخلصنا بصليبه · ومع أنه جعل قيامته فى الليل ولم يعلنها للكل ولكن صليبه جعله فى وسط المدينة فى وسط العيد فى وسط المجمع من اليهود بمحضر مجلس قضاء الرومان ومجلس حكم اليهود كليهما حين جمع العيد كافة الملتئمين فيه فى وسط النهار بمشهد المسكونة العام واذا كان الحاضرون وحدهم أبصروا الحادثة الكائنة أوعز الى الشمس أن تخبر باستتارها كل موضع المسكونة وتذيع ما اجترىء به عليه ·

على أن هذا الحادث على ما سبقت فقلت قد صار شكا لأناس كثيرين لكن مايجب أن نصغى الى أولئك المتشككين لكن سبيلنا أن نتأمل المتخلصين المحكمين الفضائل وما معنى تعجبك والصليب فى كل مكان يظهر بهيا لامعا حتى انه سمى مجدا وفاخر به بولس الرسول لأن فى ذلك اليوم الرهيب المزمع أن يجىء فيه الرب معلنا مجده اذا حضر مجلس حكمه المخيف اذا وقفت لديه كافة طبيعة الناس اذا اندلع لهيب النار اذا أتت الى أسفل جموع ملائكته وقواته العلوية بغتة اذا ظهرت أرباب الظفر تلك الجزيلة عددها اذا لمع أناس كالشمس وأشرق أقوام كالنجوم واذا حضرت صفوف الشهداء الكثيرة وجماعة الرسل اذا أقبلت مواكب الأنبياء اذا سيق الى الوسط محافل الرجال الشجعان كلهم حينئذ فى ذلك الظهور المجيد

يجيء الصليب باعثا شعاعاته البهية لأنه قال عز قوله « حينئذ تظهر علامة ابن الانسان فى السماء والشمس تظلم والقمر لا يعطى ضوءه » وأما علامة الصليب فتظهر لامعة فيالبهجةهذا الألم ويالبهاء الصليبالشمس تظلموالنجوم تتساقط تساقط الورق والصليب يلمعأبهى من تلكالنجوم المنيرة تلألؤا مشتملا السماء كلها أرأيت كيف يتجمل به سيدنا اذا يريه ذلك اليوم للمسكونة كلها باشراق هذا مبلغ كثرته ٠

البـــاب الثـــامن عشر

فى أن الفائدة ليست قليلة التى صارت للـكنيسة من العوارض العارضة لها

فاذا رأيت الآن أناسا متشككين من تلقاء الحوادث العارضـة فافتكر اولا ذلك الافتكار أنهم لم يحوزوا الشكوك من الجهة لـكنهم انما امتلكوها من جهة سقمهم وضعفهم وهذا المعنى يوضحه الذين ما أثر فيهم هذا العارض وتأمل مع ذلك أن أناسا كثيرين أشرق فضلهم من هذه الجهة أعظم اشراقا اذ مجدوا الله عز وجل شاكرين له بكافة حرصهم ومهما ذكرنا فلا ننظر الى المتزعزعين المتمائلين لـكن أنظر معهم الى الثـابتين ثبوتا مكينا الذين قـد عدموا أن يكونوا مزعزعين أقوى مما كانوا ٠ لا نتأمل المرتجفين لـكن تأمل السائرين برياح ساكنة وهم أكثر من الراجعين الى الوراء بجملة كثيرة فان كان أولئك المنسحبون الى التشكيك أكثر عددا فان واحدا عاملا مراد الرب لأفضل من أناس كثيرين متجاوزين شريعته ٠

الباب التاسع عشر

(في أن هذا الموضع كان فيه شهداء كثيرون في حياتهم وبعد وفاتهم)

فليخطر بفطنتك جموع الذين تكللوا بأكليل الشهادة ما كان أكثرهم لأن طائفة منهم ضربوا بالسياط وجماعة طرحوا منهم في السجون وبعضهم طوقوا بالسلاسل وبعضهم عدموا وطنهم وفيهم من فقدوا نعمتهم ويسرهم أقوام نقلوا الى النفي وبعضهم ذبحوا وأقوام شرعوا في ذبحهم وأناس ذبحوا منهم بعزمهم لأنهم لما جردت الحراب عليهم وارهفت السيوف لهم وتداركت الويلات كل يوم اليهم وعصفت بهم رياح الذين في الرياسات واشتد غضبهم عليهم وتقاطرت المخاوف وأنواع كثيرة من التعذيت والعقوبات اليهم ما خضعوا ولا خاروا لكنهم وقفوا على الصخرة وقد عدموا أن يكونوا متزعزعين وآثروا أنيعملوا كل ماأوضح شجاعتهم وأنيقاسوا كل ماأصابهم حتى لا يشاركوا الذين تجاسروا على هذه الافعال والأمثال في تجاوزهم شريعة الههم وما تجرد لهذا الجهاد رجال وحدهم لكن قد وجد معهم في ذلك نساء وتشجعن في جهات كثيرة أكثر من الرجال كثيرا وما تجرد نساء فقط لكن قد وجد معهم أيضا أحداث أيضا وصبيان جدا فقل لي أهذه الفوائد صغيرة عندك أن تربح الكنيسة رهطا من الشهداء هذا المبلغ مبلغه فهؤلاء كلهم شهداء لأن ليس يكون أولئك الناس شهداء وحدهم الذينسحبوا الى مجلس قضاء وأمروا بالتضحية لأصنامهم فلم يقبلوا وقاسوا ماقاسوه لكن هؤلاء أيضا يكونون شهداء وهم الذين اقتبلوا أن يقاسوا مكروها من أجل غرض أي كان من الأغراض المظنونة محمودة عند الله وان بحث باحث باستقصاء بحثه وجد أن هؤلاء شهداء أكثر من أولئك لأنه ليس فعلا متساويا أن يقتبل أحدنا أن يقاسي مكروها ولا يرضى أن تهلك نفسه بالسقوط في الاثم من شدة الاضطهاد بل يتكبد هذا العذاب بعينه من أجل محمدة يحصل عليها فهذا دليل على أن اكليل الشهداء قد تكلل ليس للذين ذبحوا وحدهم لكن قد لبسه معهم أيضا الذين سيقوا لهذا الموت وصاروا معدين له وهذا القول بعينه قد قلته فيما سلف أن الذي قد اعد للذبح وأطاع صار كالمذبوح بعينه وهذا ما أريد أن أحققه وأبرهنه من كلام بولس لأن بولس المغبوط اذا ابتدأ أن يعد الذين أشرق فضلهم في زمان آبائنا وأجدادنا وجعل ابتداء

وصفه من هابيل ثم تقـدم متدرجا الى نوح والى ابراهيم واسحق ويعقوب وموسى ويشوع وداود وصموئيل وايليا واليشع استثنى بأن قال « لذلك نحن أيضا اذ لنـا سحابة من الشهود مقدار هـذه محيطة بنا » (عب ١٢ : ١) على أن ليس هؤلاء كلهم ذبحوا وأليق ما يقال أن ولا واحد منهم ذبح ما خلا اثنين أو ثلاثة وهم هابيل ويوحنـا وزكريا والآخـرون كلهم انتهى عمرهم بوفاتهم ويوحنـا بعينـه فلم يؤمر بالتضحية لصنم فـذبح اذ لم يخضـع لذلك لـكنه انما قتل لقوله كلمة واحـدة لأنه اذ قال لهيرودس « لا يحل لك أن تأخـذ هيروديا امرأة فيلبس أخيـك » لـكن أخذ الحبس وصار من ذلك الى الذبح فان كان من قاوم زواجا غير شرعى وصل به الأمر الى القتل ولمـا قطع رأسه صـار شاهـدا وهو أول الشهداء فالذين قـد قاسوا ذبحا قاسيا وما تجردوا مقابل هيرودس وحـده لـكنهم تجردوا مقابل هيرودس وضابطى مملـكته والمسكونة كلها وما قاوموا زواجا منحرفا عن الشريعـة فقط لـكنهم انتصروا لشرائع الههم ولفرائض كنيسته وقـد أزيل حفظها وأوضحوا ذلك بأقوالهم وأفعـالهم ومجاهرتهم رجالا ونسـاء وصـغارا حتى كانوا يشرفون على الموت كل يوم ويموتون ·

فـكيف لا نحسب هؤلاء فى صف الشهداء ولعمرى أن ابراهيم ما ذبح ابنـه الا أنه بنيـة وعزم قد ذبحه وسمع من العلو صـوتا قائلا انك ماشفقت على ابنك الحبيب من أجلى فمن هذه الجهة اذا كان عزمنا فى كل مكان تاما فى الفضيلة فنـأخذ اكليلا تاما كاملا فان كان ذلك الفاضل لـا لم يشفق على ابنه أذيع ذكره ونوه باسمه على هذا المثال فهؤلاء ان لم يشفقوا على ذواتهم بل ثبتوا حيـاتهم محتملين شتائم ومثـالب وأذى وهـذا ليس بالأمر الهين ولذلك يتعجب منهم بولس الرسـول قائـلا « اذا اشتهرتم أحيـانا بعـذاب وبضغطات وحصلتم أحيانا مشاركين الذين تصرف فيهم هكذا » ·

وما الذى يقوله قائل فى وصف الرجال والنساء الذين جهدوا فى انالة المعـذبين الراحة لأن نسوة كثيرات بذلن أملاكهـن حتى يحصـل المعتقلين والمنفيين تسلية من شقوتهم الجزيل تقـديرها واقتبلن اختلاس ماكن يمتلكنه بسرور على حسب قول الرسول وأناس بذلوا حيـاتهم بعينها وهكـذا كان هؤلاء المجاهدون ذخرة الـكنيسة وكنزها حتى أن الذين كانوا فيمـا سلف طريحين فى ونيتهم قـد صـاروا أسرع من النـار والذين كانوا مستمرين فى

ملاعب الهزل خرجوا الى البرارى جاعلين الروابى والجبال كنيسة والغنم اذ ليس لها أحد يرشدها قد انتقل قطيعها الى رتبة الرعاة · والجند من أجل مجاهرتهم وشجاعتهم قد انتقلوا الى رتبة قائدهم وكلهم يبينون بحرارتهم اللائقة بهم وبحرصهم اتصالهم بسيدهم ·

أما تنذهل وتتعجب من مبلغ الفضيلة التى تكونت من هذه الجهة لأنه ليس العائشون عيشة قويمة فقط أظهروا شجاعتهم لكن كثيرين من المولعين بالنظر الى الملاعب والهزل التائهين الباهتين الى سباق الخيل المسارعين اليها طرحوا كافة حياتهم الأولى وجاهدوا حتى انتصروا على الملوك والولاة بثباتهم واحتقروا العذاب وتضاحكوا على الأهوال موضحين أن كل انسان يمكنه أن يعتنق الفضيلة مذهبها وانه يمكن من كان هالكا جدا اذا تاب وانتقل أن يلامس بنظره السموات بعينها · فاذا قد رأيت آيات الظفر هذا مبلغها وأكاليل مضفورة هذا مقدارها فى كثرتها وتعليما كليا جزيلا هذا مبلغه قل لى من أين تشك هل من الظالمين تشك ؟ لكنى ما قلته لست أكف من أن أقوله أن هؤلاء المتشككين سبيلهم أن ينسبوا سبب هلاكهم الى أنفسهم لأن هذا المعنى بجملته قد أوضحه لنا الكلام الالهى لأنه ليس كل الذين ترونهم بثياب التقوى أتقياء فكم من كثيرين يلبسون صورة التقوى وهم ينكرون قوتهافهؤلاء هم الذين يهزمون حالا ولا يثبتون · هم الذين يلبسون ثياب الغنم وهم ذئاب وكما أن النار تظهر قيمة المعادن هكذا التجارب تظهر المؤمنين من غيرهم وهذا المعنى اذ دل عليه بولس قال « يجب أن تتكون فيكم بدع من الاختيار والهوى حتى يصير المتهذبون فيكم ظاهرين » ·

البـــاب العشرون

فى أنه قد عرض فى أزمان الرسل أصعب من هذه العوارض

فلا يذهلك أى عارض تراه مهما كان قاسيا لا تخش اذا رأيت كاهنـا قـد صـار شريرا متوحشا على رعيته أو واحـدا من الرؤساء أو منضابطى المملكة مظهرا حنقا وجفاوة كثيرة لـكن تفطـن بأنه قـد عـرض فى أزمان الرسل أصـعب من هـذه العوارض لأن ضـابط قضيب المملكة فى زمانهم كان سبب نقض الشريعـة لأن بولس الرسـول لقبـه هـذا اللقب اذ كان جامحا الى كل نوع من أنواع الرذيلة سائرا بخبثه أشر من كافة الملوك الذين تقدموه الا أن هذا العنيـد لم يضر الـكنيسة ولا أولئك الرجال الأبطـال لـكنه أظهرهم أبهى اشراقا ممـا كانوا ٠ وكهنـة اليهود كانوا بهذه الصفة أقواما أردياء خبثـاء حتى قـد بلغوا فى شرهم الى أن أوعـز المسيح الى شعوبهم أن يهربوا من طريقتهم ومن مماثلتهم لأن مخلصـنا قال عن قـوله « على كرسى موسى قـد جلس الـكتبة والفريسيون وكل ما يقولون لـكم أن تعملوه فاعملوه ولا تعملوا نظير أعمالهم » على أنه فضلا عن شر الـكهنة وضابطى المملـكة قـد أشرق فضـل الرسل فـكللوا وما ضرهم عارض لكنهم من هـذه الجهة أشرقوا اشراقا عظيما فمـا سبيلنا اذا أن نستغرب نحن الحوادث الحـادثة فان المحن والتجارب هى مقترنة فى كل مكان بالمستقيمين دائما ٠ تأتيهم من أهلهم من الغرباء منهم ولهـذا المعنى لمـا أبصر بولس الرسول قطرات الشدائد والأخطار متقاطرة عليهم وخشى أن يرتجف من هذه الجهة أقوام من تلاميذه قال حين كاتبهم « قـد أرسلت اليكم تيموثاوس حتى لا يتزعزع أحـد منكم فى هـذه الشـدائد والضغطات لأنـكم قـد عرفتم أننا موضوعون لهـذا الاحتمال » ومعنى قـوله ان الآلام تابعـة لنـا ولابد أن نقاسى بلايا كثيرة لأنه قال « اننا موضوعون لهذا الاحتمال » وكما أن الأصناف التى تبـاع فى السوق لهـذا الغرض تبتـاع وتشترى فـكذلك عيشة الرسل لهـذا الفعل وضعت لتعرف وكلما قاسوا مكروها كلما بان فضلهم فلا ننتظر فى وقت من الأوقات أن نمتلك صـنفا من راحة خارجة ومع ذلك فنحن أكثر الناس سرورا داخليا ٠ فجميع الذين يستفيقون ليس من شأنهم فقط ألا يؤذوا من آلامهم لـكنهم مع ذلك يستفيدون منها فائدة عظيمة فلذلك لما تكلم الرسول عمن بشروا ضـده وقاوموه قال « سواء كان بعلة أنه بحق ينـادى بالمسيح

وبهـذا أنا أفرح » وقال « ان وثقى الت أكثر الى تقـدم الانجيل » وقل لى ما رأيك فيما جرى فى عصر موسى النبى فى وسط مصر أفما قـد أمهل الله للسحرة أن يقاوموه أفما يذكر بولس السعيد هـذا الخبر فيقول « كما قاوم يانيس وينبريس موسى على هذا النحو يقاوم هؤلاء القوم » وعلى هذه الجهة مانقصت الشكوك فى وقت من الأوقات والأزمان ولا خلا من العالم المـكللون بها فهذه الحوادث كلها افتكر فيهـا ولا تفتكر فى هـذه العوارض وحـدها لـكن تصفح مبلغ الفائدة التى تكون من هـذه الجهة وتأمل ذلك المعنى أن أناسا آخرين تتكون لهم من هـذه الحوادث أقوال يمتنع التكلم بها لأن ليس يمكنا أن نعرف الغوامض كلها فان الحظوظ الأصلح عاقبـة ستاتينا بعد هذه الحوادث والعاقبـة البـديع فعلها ستكون أكثر منها على حذو ما جرى فى عصر يوسف وذلك أن ابتداء ما عرض له جرى بصعوبة وتمادت أحواله الى مدى طويل وحصلت اضدادا للوعد الذى وعد به ولـكنها صـارت فيما بعد أعظم من الحظوظ التى كانت تنتظر له وهكذا فى أوان صلب ربنـا فقد كان أمره مهينـا فى أول الأمر ولـكنه تحول الى مجد عظيم · وبعد ذلك سـار تلاميذ ربنـا الى الهرب وفى دواعى الطرد وفى الحروب وفى الاغتيـالات وكانوا مستترين مخفيين مرتاعين وفى هذه الحـال أنذروا بكلام انذارهم فى كل محافل اليهود وكانوا يسوقون الذين يؤمنون بربنا ويسجنونهم ويمزقونهم وما حاجتى أن اذكر ذلك وأذكر اضطهاد الرؤساء لهم لأن واحدا خياميا هو بولس المستمد السلطة منهم استعمل جنونا هـذا المبلغ الجزيل مبلغـه وقد بلغ فيه الى أن يسحب رجالا ونساء ويزجهم فى الحبوس ولـكن أنظر كيف خاف بعد هذه الأفعـال هذا المطارد على كافة الذين آمنوا وسما فى فضـله عليهم وتجـاوز فأشرق فعـل الصليب أكثر من اشراق الشمس واشـتمل المسكونة كلها وضبطها ·

البــاب الحادى والعشرون

لم صارت المحن كثيرة فى العهد العتيق والجديد

فان قلت فلأجل أى سبب حدثت فى العهد العتيق والجديد فوادح خطرة هذا مبلغها ومحن هـــذه مقدارها واغتيالات هـــذا مبلغ كثرتها فاعرف أن سبب حدوثها هو أن عمرنا هـــذا الحاضر هو معركة صراع وفرصة ارتياض وجهاد وكور تصـــفية واظهار للفضـــيلة وكما أن الدباغين يتناولون الجلود فيقبضونها بكيفية خاصـــة ويمدونها فى العمد والحيطان حتى تؤهل لتصنع · وصـــاغة الذهب يولجون الذهب الى النـــار الى أن يجعلوه خالصـــا من كافة غشه ومعلمو الصراع يروضـــون المجاهدين فى معركة الجهاد بأتعاب كثيرة ويعاركونهم أشد من معركة معـــانديهم حتى يحكموا فى أجســـامهم الارتيـــاض فى المصـــارعة كما ينبغى احكامه ويكونوا متفوقين فى جهـــادهم مستعدين للقبض على أعـــدائهم فـكذلك يعمل الله عز وجل فى هذا العالم اذا أراد أن يجعل نفسا ملائمة للفضيلة فيقبضها ويسبكها ويدفعها الى تعذيب المحن ويهذبها حتى يشدد المتوانين ويصير المتهذبين أوفر تهذيبـــا ويمتنع اصطيادهم باغتيالات الشياطين عليهم ويجعلهم كلهم ملائمين لقبول النعـــم الصالحة المـــأمولة لأنه قـــد قال أن رجلا قـــد فاته أن يمتحن ويجرب فذاك قـــد خاب من الانتفاع به · والضغطة من شأنها أن تولد صبرا فمن ثبتوا هم من كانوا أوفر من غيرهم صبرا فلأجل هذه العـــلة أهمل أيوب يقـــاسى كل ماقاســـاه لـــكيما يستبين أوفر تهذيبا وحتى يســـد فم ابليس المحـــال ولهذه العـــلة أهمل رسله حتى يصيروا هم أوفر الشجعـــان وحتى يوضح من هذه الجهة قـــدرته لأن هـــذه العلة ليست صغيرة ولذلك قال لبولس عندما التمس راحة وتخلصا من المصـــاعب التى احتوت عليه « تكفيك نعمتى لأن قوتى فى الضعف تكمل » ·

البـاب الثاني والعشرون

« في أن فواجيء المحن ليست مما لا تشكك فقط المصـائب عزمهم اذا ميزوها لـكنها مع ذلك تنفعهم حتى عند الوثنيين » .

لأن الذين ما تقـدموا بعد الى الاعتقاد بالدين المسيحي يستفيدون اذا رأوا احتمالنـا وصبرنا فائدة عظيمة لأنهم اذا رأوا النصـارى مظـلومين مثلوبين وفي الحبس ساكنين قـد تكاثر الاعتـداء عليهم مقطعين محروقين مغرقين وما يخضعون لانكار دينهم ولا بصنف من صـنوف الشدائد . فتفطن في مقدار ما يؤثر بهم ذلك اذ يكون موضوعا لتعليم أوفر نفعا ولهذا المعنى سمع بولس الرسول هذه الألفاظ « تكفيكنعمتي فان قوتي فيالضعف تكمل » وهـذا الغرض يتجه لنـا أن نبصره في العهـدين العتيق والجديد . تفطن فيما قاسـاه نبوخذ نصر الملك وقـد كان واجبـا من ثلاثة صبيان مأسورين مكتوفين مطروحين في النـار ولبث مقهورا وقـد كان جيشه الجزيل عـدده حاضرا عنده . ولم يقتـدر أن يقهر ثلاثة أجسام مستعبدة خائبـة من وطنها من حريتها من كرامتها من مقدرتها من أموالها عادمة السكنى مع أهلها ولو لم يطلق ذلك الحريق لمـا كانتراية ظفرهم صـارت بهية بهذه الصورة لامعة ولا كان اكليلهم حصل بهذه الصفة بهيئـة حسنة . تأمل ما تكبده هيرودس وقـد كان لائقا به اذ وبخه المعمدان حين أبصره ولم تمنعـه السلسلة التى غلله بها عن مجاهرته لـكنه قد اختار أن يذبح وذلك عنده افضل من اهماله حرية فمه تلك الحسنة مجاهرتها وتفهم أن هذه الأفعال متى ابصرها وسمعها أحد العائشين في ذلك الوقت أو الـكائنين فيما بعد ولو كان من المتوانين جدا الحاوين عقلا صغيرا في تمييزه كيف يستفيد منها أعظم المنافع ويذهب رابحا . لا تذكر لى الزائل فهمهم الأغبياء الذين قـد صاروا لحوما بذواتهم كثيرى الوهم فان هؤلاء ليسوا يذلون في هذه المحن فقط لـكنهم يغلطون في كل حادث بمنزلة شعب اليهود الذى أكل منا وخبزا وكان على هذا المثـال أيضا ينتقد ربه اذ كان فيمصر ولمـا استخلص من مصر . وعند حضور موسى وعند انصرافه . لـكن احضر الى الوسط أولئك المستفيقين المتيقظين وافتكر كم منفعة استثمروها كانت لائقة بهم اذ أبصروا ثقة أنفسهم فاقـدة أن تكون منقلبـة وبصيرتهم عادمة أن توجد مظلمة ولسانهم مملوءا مجاهرة فاذا كان انسان البرية يوحنـا المعمـدان قهر الملك وهو معتقل فلم يصر متراخيا ولم

يلبث صامتا حتى قطع رأسه · فلا تقف عند هذه الأوصاف لـكن ابحث عن الأفعـال الـكائنة بعد ذلك · هيرودس قطع ويوحنـا قطع ، فمـن منهمـا مطوب في النـاس كلهم ؟ ومن هو المحسود ؟ ومن هو الذائع ذكره ؟ ومن هو المتكلل ؟ ومن هو الممدوح ؟ من هو المستعجب منه ؟ ومن هو الظافر ؟ من منهما يوبخ الى اليوم ؟ أفما يوحنـا يهتف فى كل كنيسة « لا يحل لك أن تأخذ هيروديا امرأة فيلبس أخيك » وهيرودس يشـهر به بعـد وفاته بزناه وبانحرافه عن الشريعة ومخالفته وبجسارته · وتأمل مع ما قلنـاه قوة المقيد ما كان أعظمها وضعف المغتصب ما كان أشده اذ أنه ما استطاع أن يصمت لسانا واحـدا لـكنه اذ أبطله فتح عليه عوض ذلك اللسان ومعـه ألسـنة جزيل عـددها · وهـذا الفاضل بعـد موته أوقع الرعب فى قلب ذابحه حتى بعـد ذبحه اياه لأن بهذه الصـورة زعزع قلبـه الخوف منه الذى أفضى به الى ان يتوهم فيـه أنه قـد قام من بين الأموات وأنه حينئـذ يجترح العجائب وهو الآن منذ ذلك الوقت وكل وقت يوبخه فى المسكونة كلها بذاته وبآخرين غيره لأن كل واحد من المؤمنين اذا قرأ الانجيل يقرأ هذا القول « لا يحل لك أن تأخذ هيروديا امرأة فيلبس أخيـك » وهـذا يكون فى مجـامع المؤمنين ومخالطاتهم التى فى منازلهم التى فى أسواقهم التى فى كل مكان يحويهم اذا ذهب الى بلاد فارس الى بلاد الهنـد الى بلاد السودان ان مضيت الى كل أرض تبصرها الشمس لو توجهت الى أقاصى الدنيـا تسمع هـذا الصـوت وتبصر ذلك العـدل هاتفـا الآن أيضا رافعـا صـوته موبخا رذيلة الغاصب لا يصمت فى وقت من الأوقات أصلا · فما قد أفاده صبره الـكامل وما الذى أضره من وفاته ما الذى ناله من موته ما الذى تأذى به من سلسلته ما الذى أضره من حبسه بل ما أكثر الذين ثقفهم وهـذبهم من النـاس المالكين عقلا بواسطة الأقوال التى قالهـا من النوائب التى قاساها والألفاظ التى ينـادى بها الآن أيضا والتى نادى بها حينئـذ اذ كان فى جسده حيـا فلا تقولن لماذا رضى الله لعبـده أن يموت شهيدا لأن موته كان اكليلا ولم يكن موتا ولـكنه كان أعظم الحظوظ ومقـدمة حيـاة تعلم فلسفة الاحتمال والصـبر وليس يحصل لك الا يضرك صـنف من أصـناف هذه النوائب وأمثالها فقط لـكنك مع ذلك تستفيد أعظم المنـافع وأجلها وما قولك فى المرأة المصرية أما قرفت يوسف أو ما تجنت عليه أو ما قيدت الصـديق أو ما خلدته فى الحبس أو ماأوقعته فىخطر واصل الى أقاصيه أو ما قتله قتلا بتقولها عليه أو ماوضعت حوله ظنا خبيثا فما الذى ضره من ذلك فى ذلك الوقت أم الآن لأن على مثال

جمر نار يحجبه تبن يظن فى الابتداء انه يستره فيأكل الجمر على غفلة التبن الموضوع عليه ويضرم ذلك التبن بعينـه اللهيب عاليـا ارفع علوا يكون مثال الفضيلة ان ظن ظان انها تعسف وتعنت فقد تظن لعمرى فى مبادئها ومقدماتها انها محجوبة الا انها بالعوائق التى تعترضها تزهر ازهارا عظيما وتصـل اخيرا الى السماء بعينها لأن ما الذى صـار من الحظوظ سعيدا أسعد من حظ ذلك الشاب لأجل التجنى عليه فبسبب الاغتيـال العـارض له ان وصل الى كرسى الوزارة ومجد الملك لأن معـالى الشرف فى مفاخر التوفيق والاقبال والأكاليل هى مقترنة بأوجاع النوائب والمحن حتى أن جميع الناس الذين قد عرفوا فضـيلة هذا الفاضـل يمدحونه فى كل مكان من المسكونة وبعد كثرة زمان جزيل تقـديره ما قل ذكره لـكن صور عفته وفضيلته مرفوعة فى كل موضع من المسكونة أبهى حسنا من تماثيل الملوك وأوضـح بيـانا فى بلد الروم فى بلد العجم فى فطنـة كل واحـد منا فنبصره كلنا مضبوطا مخنوقا مشيرا الى تلك الزانيـة الشقية التعيسة بالمشورات الواجبة مستوردا العظات الناشئة منه كلها لتخليص تلك البـائسة مخجلا زوال حشمتها وفقد خجلها مخمدا أتونها مريدا أن يخطفها من الاثم ويسيرها الى هـدوء وسكون فلمـا زاد اضطراب موجها وكانت سفينتها قد غاصت فى المـاء هرب هو من أمواجها محاضرا الى الأرض الصلبـة مخلفـا ثيـابه فى يدى تلك الشقية ظـاهرا بتعريتـه أبهى حسنا من المتسربلين الدوابيج البنفسجي لونها مقيما ظفر عفته بهيـا حاله حال صنديد فريد مظفرا ولسنا ننقص قط من ذكره بهذه الأوصاف لـكننا نمعن فى وصفه الى أبعد غاية ونبصره أيضا مسوقا الى الحبس مكتوفا ضاربا فيه زمانا طويلا ونعظمه لأجل هذه النوائب التى هى أفضل أحواله كثيرا ونطوبه ونذهل منه ونمدحه ٠

فان كنت عفيفا اذا تأملته تصير أشد عفـافا وان كنت فاسقا ستنتقل بحديثـه الى العفـة سريعا وتصير أفضـل حالا وهذه الألفـاظ كلها قـد كررناها فلا يرجفكم عارض لـكن ارتجفوا من العوارض الحادثة وليكن لكم صبر مثل المجاهدين تعليما للثبـات والصبر واذا رأيتم عيشة كافة النـاس المتجلدين العـالى محلهم منسوجة بهـذه المحن فـلا ترتجفوا ولا تنزعجوا لا فى محنتكم ولا فى محن غيركم فان الـكنيسة من ابتدائها ترتاب فى تكاثف الموج عليها وعلى هذه العجيبة نمت وكثرت فلا تستغربوا اذا عارضا فانه ما حدث حادث ما كان واجبـا لـكن على ما يجرى الأمر فى املاك الدنيـا فلا تجىء اللصـوص الى حيث قـد يكون تبن وحشيش ولا الى موضع فيـه

رمل واتراب لـكن الى الموضع الذى يكون فيــه ذهب وجواهر ولؤلؤ هنــالك يحتال لصوص البحر ولصوص البر وناقبوا الحيطان ويغتــالون اغتيــالا متصــلا وكذلك ابليس المحتــال حيث يرى ثروة زائدة فى نفس فاضلة هنالك ينصب حيله ويقدمها ولـكن الذين يغتال عليهم اذا ثبتــوا ما ينقص حالهم بالضيق لـكنهم مع ذلك يجمعون ثروة لفضيلة أعظم تقديرا ٠

البـاب الثالث والعشرون

« فى أن المحن العارضة دلالة عظيمة على تهـذيب الـكنيسة وأنها قد نفعت كثيرا » ٠

وهذا المعنى قد حدث الآن وهذا دلالة عظيمة على ثروة المحامد الكائنة وعلى شجاعة الـكنيسة لأن ذلك الشيطان الخبيث حين أبصرها زاهرةمتهذبة مستعلية الى العلو فى لحظة صـغيرة من الزوان قـد صــار فيها حرصكثير وتزايد المتهذبون فيما هو أفضل وانتقل العائشون فى الخطـايا الى التوبة وعاين المسكونة كلها متعلمة من هــذه الجهة حرك حيله كلها وأضرم حروبا من ذوى قبيلتنــا وكما جرى منه على ايوب انه اصـدر له حينــا فقد أملاكه وحينــا عدمه اولاده وحينا مرض جسده وحينا لسان امرأته وحينا تعييرات أصـدقائه وتقريعاتهم ومثالبهم واورد على الصديق كل نوع من حيله فكذلك جرى على الـكنيسة الحيل المخترعة منه بالأصـدقاء بالأعداء بذوى المراتب بالمحسوبين فى الجنــدية بالمـكرمين بالأسقفية بالاغتيالات الـكثيرة المختلفة لأنه اذا احتال بهذه الحيل الجزيل مبلغهــا على الـكنيسة ليس مستعجبا انه لم يزعزعها فقط لـكنه جعلها مع ذلك أبهى مما كانت حسنا لأنها ما علمت جميع النــاس من هــذا التعليم فى ذلك الحين الذى لم يصل فيه اليها أذية مثل ما علمت جميع المسكونة بصـبرها بضــبط هواها وباحتمالهــا المحن وباحتقــارها متعــة الدنيــا وباحتسابها المجد العالى كلا شىء وباعراضها عن الاكرام وبظفرها على الموت وبتهاونهــا بهذه الحياة وبقبولها عن التنازل عن الأصــدقاء وباستعدادها لميتـــات مختلفـــة وبظفرهــا على السيوف وباعتبارها أن حظوظ الدنيــا كلها البينة وتـكريماتها وشرفهــا واقتدارها ونعمتها حقيرة أحقر من أزهار الربيع وهــذه التعاليم ليس يظهرها واحــد فقط ولا اثنــان وثلاثة لـكن شعبها كله يظهرها ليس بألفاظه فقط لكن بأفعاله ايضا بالنوائب التىقاسوها بالمحن التى قهروها بالمغتالين عليهم الذين غلبوهم

بافعال صبرهم التى احتملوها مع النوائب التى قاسوها ولم تكن الأفعال الا صلب كمثل حجر الماس وما هزوا أسلحة ولا أثاروا حروبا ولا مدوا قسيا ولا أطلقوا نشابا لكن كل واحد منهم توشح بستور الصبر بحب الترتيب والوداعة والشجاعة وبمقاساتهم الضيم اخزوا الذين فعلوه بهم من كثرة تزايد الشر بهم ٠

البـاب الرابع والعشرون

« فى أن الذين ينحرفون عن الشريعة بهذه الأفعال سيجازون بعدل هناك ليس فى القضاء المرهوب بل وههنا ايضا وهو الخاتمة »

والآن هؤلاء المحتملون الأصفياء يستعملون وجههم بهيا والحاظهم حرة ومجاهرة يحتجز وصفها ويدخلون الى السوق ويعتدون فى منازلهم فيبادرون الى القداس والذين عملوا هذه الأعمال المنكرة يحتجبون فى كل صنف من صنوف حيلهم التى اوردوها قد حازوا فى باطنهم فطنتهم خبيثة وهم مرتعدون مرتاعون يجولون وهذه الحال حالهم وكما ان الوحوش المتعسر موتها بعد ان تضرب ضربة أولى وثانية من شانها ان تصادم السهام باشد نهضتها فتدفع الضربة على ذاتها اشد من الجراحات الحاصلة فيها ان تقتبل الجراحات فى أحشائها باعيانها والأمواج اذا ما صادمت الصخرة بأشد نهضتها انما تغيب بعد ذلك بانكسارها وتحللها فكذلك هؤلاء الأشقياء بالأفعال التى يغتالون فيها انما يحفرون الهوتات لذواتهم أكثر ممايحفرونها لأناس غيرهم لأن الذين يصابون من غيرهم يصيرون عن اهل المسكونة مفضلين وتراهم يمدحونهم ويذيعون فضلهم ويكللونهم عن الذين يعرفونهم والذين لا يعرفونهم الذين يعرفون افعال الصابرين من افعالهم والذين يتحققونها من أخبارهم والذين يتوجعون لهم جزيل عددهم والذين يجاهدون معهم والذين يبتهلون لهم بالحظوظ الصالحة كلهم والذين يغتالون هم على غيرهم يصير الذين يمقتونهم جزيلا عددهم وأكثر من ذلك كثيرا الذين يوبخونهم الذين يحزنونهم ويخجلونهم الذين يلعنونهم لعنات جزيلا عددها الذين يتمنون ان يروهم فى عقوبة وتعذيب فهذه مكاره تعرض لهم ههنا فأما المكاره التى تحل بهم هنالك فأى قول يبينها لأنه ان كان من يشكك انسانا واحدا ويفتنه قد حكم عليه بتعذيب هذا تقديره بلغ الى أن يكون أوفق له أن يعلق فى عنقه حجر رحى ويغرق فى البحر فتفهموا كم

مقــابلات عادلة يقــابل هؤلاء المشككين بها فى مجلس القضـــاء ذلك المرهوب حينئــذ كم عــذاب يتكبدونه أفرادا لأنهم رجفوا أهل المسكونة كلها وأقلقوا كنائس جزيل عــددها والذين أصــابهم من أولئــك ما أصــابهم سيقامون مع الشهداء مع الرسل مع الرجال الصــناديد العــالى محلهم يلمعون ثوبا من الفضــائل التى احكموها من أوجاع محنهم من اكليلهم من رايات ظفرهم من كثرة مجاهدتهم وسيصير أولئــك معاقبين ولا يمكنهم أن يخلوهم من التعذيب ولو من خيرات الأبرار نالوا ضربات جزيل عددها من أولئـــك الصبورين يقدمون توسلا لأجلهم لــكنه ما ينفعهم ذلك نفعــا لأنه ان كان من اعرض عن فقير واحــد هو لعــازر قاسى عــذابا جزيلا تقــديره وما رزق من التعزية ولا صنفا فما الذى يقاسيه هؤلاء وقــد طردوا أناسا هـــذا مبلغ كثرتهم وضغطوا وغموا أقواما جزيلا عددهم وازعجوهم فهــذه الأقــوال كلها اذا تفكرتم فيها وجمعتم من الــكتب الشريفة الفاظا مشابهة لها كانت لكم سورا حصينا وتجعلون هــذه الأخبــار أدوية نافعة للمرضى أيضــا الأشد مرضا ، فقفوا اذا متمكنين عادمين أن تكونوا متزعزعين متوقعين الحظوظ الصــالحة المخزونة لــكم لأن قــد خزنت لــكم على كل حال بــلازم الضرورة مكافأة ليست تقــدر بأتعــابكم لــكنها لــكثرة سموها ممتنع وصــفها ذلك أن الهنا المتعطف علينا قــد حرص بجعل مكافأته ومجازاته بتفضيل كثير للذين اختاروا أن يؤمنوا به ويعملوا عملا فريدا صــالحا وأن يتكلموا كلاما محمودا فهذه المــكافأة نؤمن أن نرزقها بيسوع المسيح ربنا الذى له مع الابن والروح القدس المجد والقدرة والعظمة من الآن وكل أوان والى دهر الداهرين آمين .

المقـــالة الرابعـــة

« في ان قراءة الـكتب المقدسة المفيدة وانها تصير ممارسها غير مساد عليه ومصان من الأمور المضرة وان الرسل هو اسم يتضمن وظـائف كثيرة وان الرسل يمتلكون عزما وسلطانا لأعظم جدا من سلطان الملوك والرؤساء ثم يذكر اخيرا في هذه المقالة حال المستنيرين جديدا » ·

وقد ترجمها من اللغة اليونانية الى العربية الأب الفاضل اثنـاسيوس البطريرك الانطاكي وهى موجودة فى المجلد الثامن ·

انني حين أشاهد ضعف نيتي فيعروني الكلل والملل واحجم عن مخاطبة مثل هذا الجم الغفير ولـكنني لـمـا أبصر شوقكم واصبابكم العـديم الشبع فانني أنهض عزمي بشوق وحرص وأجول فى ميدان التعليم · وأنتم وان كان ضميركم صخريا لـكن بحرصكم واشتياقكم تصيرونه أخف من الأجنحة وكما أن الحيوانات تجعل لها أوكارا فى الشتاء وتدخل فى ثقوب الصخور ومتى شعرت بايناع الربيع فانها تغـادر ذلك المـكان وتعـاشر بقيـــة الحيوانات وترتكض معهم بطرا كذلك أنفسكم التى هى محجوبة فى أوكار ضعف الضمير فانها اذا ما شاهدت اشتياق محبتكم تغـادر الأوكار وتشترك معكم وترتكض صحبتكم وترتع في رياض الـكتبالروحية الالهية فى فردوس السطوراتلأن الرياض الروحيـة وفردوس الـكتب الالهية هى تلاوتها · لأن فردوس هذا النعيم لأفضل من ذلك كثيرا من كون هـذا الفـردوس ليس هو فى الأرض لـكنه مغروس من الله فى نفوس المؤمنين فهـذا الفردوس ليس فى عدن ولا وضعه فى المشارق وحيزه فى مكان واحد لـكنه بسطه فى الأرض باسرها وبثـه فى كافة أقطار المسكونة وأنه بسط الـكتب فى جميع المسكونة · اسمع ماذا يهتف النبى قائلا فى كل الأرض خرج منطقهم وفى أقطار المسكونة انبث كلامهم لأنك ان مضيت يا هـذا نحو الهنود الذين تحويهم الشمس وتناظرهم اولا وان سرت نحو اوكيانوس أو نحو جزائر انكلترا أو مضيت الى جهـة البحر الأسود أو ان اتجهت الى نواحى الشمال فانك تسمع الجميع يتلون الـكتب ويتفلسفون فيها بلغات متباينة ولـكن الايمان ليس متباين أما اللغات فمتنوعة ولـكن الضمير متفق فالنغمات تغيرت وأما طريق حسن العبادة فلم يتغير فلسانهم وان كان أعجميا لـكنهم بالعزم يتفلسفون فيلحنون بالألفاظ وأما طريق عبادتهم فحسن وجميل أشاهـدت مقدار هذا الفردوس كيف أنه ممتد الى كافة أقطار المسكونة ؟ فهنـا لا يوجد أفعى من كون هذا الموضع

عرى من كافة الدبابات ومستور بنعمة الروح وان هــذا الفردوس يتضمن ينبوعا نظير ذاك وانه ليس ينقسم الى اربعة ولـكنه اصل وبدء لربوات من الأنهر وليس ان الدجلة والفرات ولا نيل مصر ولا عنكيس الذى فى الهنـد ولـكن هــذا الينبوع يفيض عددا لا يحصى من الأنهر فمن هو الــذى يقول هكذا هو الله الذى منحنا هذه الانهر لأن يقول كالـكتوب « انها تجرى من بطنه انهار ماء حى » ٠

ارايت انهم ليسوا باربعة انهر لـكن هــذا الينبــوع يفيض من الانهــر ما لا عد له وهــذا الينبوع ليس بعجيب فى طبعــه وكثرته فقط وليس يفيض ماء بل مواهب روحيــة وهــذا الينبوع ينقسم على كل نفس من المؤمنين وهو غير منتقص ويتفرق موزعا ولا يفرغ يجرى ويلبث كما هو وهو كامل لدى الـكافة وتام فى كل احد فهذه هى كمية مواهب الروح اتشاء ان تدرك كيف ان طبع الميــاه لا يضاهى هذه بل هى افضل واعجب منها فاسمع اذا ماذا يقول المسيح للسامرية لـكى تعلم تفــاقم هذا الينبوع « ان الماء الذى اعطيه للمؤمن يكون فيه عين ماء فائض بحياة دائمة » ولم يقل متدفقــا فقــط بل ودائم الفيض لـكى يظهر لنــا فيــه غزارة الجريان غير المتقطع وليميزه عن المــاء الذى من عادته ان يتــدفق بسرعة دائما وفى كل مكان فهذا لاتستطيع ان تصنعه بقيــة الينــابيع وهى داخل الأرض ولـكنها اذا انغلت قسرا من الزيادة فانها تظهر وتجرى خارجا ولأجل انه اراد ان يظهر تفاوت المــاءين فقال الدايم جريه ٠ اتشاء ان تعلم طبيعــة هذا فاعرفه من الافادة لأنه ليس بنــافع للحياة الحاضرة لـكنه مفيد للحياة الدائمة ٠

فاذا سبيلنا أن نتدبر فى هذا الفردوس ولا نتزحزح عن هذا الينبوع لئلا يصيبنا ما اصــاب آدم ونسقط من الفردوس ٠ بل ونلبث داخله ولانقبل مشورة مبيدة ولا طغيان الشيطان ونستمر على هذيذ هذه الـكتب ومن هنا نمتلك صيانة جزيلة ومثلما ان الذين يجلسون فى شدة الحر عند الينــابيع يستنشقون برطوبة الهــواء ويرشون على وجوههم متواترا لئــلا يعــروهم الاختناق ويشفون غليل الظما المستحوذ عليهم بسهولة ٠

كما ان هذا العلاج لا يحصل الا من دنوهم الى الينبوع هكذا حال من يكون مواظبــا على ينبوع الـكتب الالهية فانهولو ابصر هيجان سعير الشهوة الردية ليمتحنة فبهذه المياه يخمد من نفسه ذاك اللهيب بسهولة وان استشاط قلبــه بلهيب حدة الغضب وكان يغلى كقــدر محماة ٠ فانه بوضــعه عليــه

يسيرا من هذا الماء يخمد غليانه بسرعة ويطفىء لهيبه · وان قراءة الكتب تختطف الأفكار الشريرة من النفس كاختطافها من وسط السعير فلهذا لما لحظ داود الملك والنبى العظيم فوائد قراءة الكتب والاصغاء اليها بتواتر شبه دوام تلاوتها ومثلها بالغرسة المتأصلة على مجارى المياه الدائمة طراوتها فقال هكذا « طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار وفى طريق الخطاة لم يقف وفى مجلس المستهزئين لم يجلس لكن فى ناموس الرب مسرته وفى ناموسه يلهج نهارا وليلا فيكون كشجرة مغروسة عند مجارى المياه » وكما أن العود المغروس على مجارى المياه الواصل اليها يكون مرتويا فى كل وقت ولا يعروه شيء من زعازع الرياح ولا يخاف حر شعاع الهجيرة ولا يجزع من لفحات سخونة الهواء لأن الطراوة التى ضمنه كافية أن ترطبه وتطرد عنه للحين شدة لهيب حرارة الشمس الخارجة هكذا والنفس الحاصلة على مجارى مياه الكتب الالهية وشاربه منها على الدوام وحاوية ضمنها رطوبة الروح فانها تصير غير مقهورة ولا فساد عليها من كافة النوايب التى توافيها كالشتائم والأمراض والكسل وما يضاهى ذلك من المصائب ولو استحوذت عليها شرور السكونة بأسرها فانها تخمد عنها سعير الآلام بسهولة وتتملك التغذية الكافية من تلاوة الكتب لأن لا عظم المجد ولا ثقل الرياسة ولا حضور الأصدقاء ولا شيء آخر من الأمور البشرية يستطيع أن يعترى النفس المغمومة هكذا مثل قراءة الكتب الالهية ولماذا ؟ لأن تلك الأشياء فانية زمنية فلذلك كانت تعزيتها وقتية زائلة ·

وأما تلاوة الكتب فهى مخاطبة لله ومتى أراد البارى تعالى أن يعزى من هو فى الأحزان فماذا الذى يستطيع من الحاضرات أن يجعله فى محنة ؟ فلنصغ اذا الى القراءة ليس هاتين الساعتين فقط لأن السماع الساذج لا يكفينا للصيانة والحرص بل كل أحد منا اذا ذهب الى منزله فليتخذالكتب فى يديه ويتأمل معانى المقولات وبهذه السجية يستمد المنفعة الكافية من الكتب لأن ذاك العود المغروس على مجارى المداه لم يثبت هناك ساعة واحدة او ساعتين فقط بل ليلا ونهارا فلهذا يفرع الأوراق ويبرز الأثمار ولو لم يسقه أحد من البشر · ولماذا لكونه مغروسا على المجارى ويجتذب الرطوبات من أصوله ويرسل المنفعة الى جميع البدن كأنه من مسام ما وعلى هذا المنوال من يمارس تلاوة الكتب على الدوام ويلبث عند المجارى ولو يتفق له من يشرحها وأنه بواسطة القراءة المتواترة ويجتذب المنفعة كأنها

من جراثيم ما فكذلك نحسن اذا ما شاهدنا انزعاجكم ونوائبكم وهممكم الجزيلة فنورد لكم معانى الكتب بمودة ولطف وسكون لنصير تعبير تذكرة المقولات ثابتا فيكم وكما أن الوابل الغزير اذا انسكب على وجه الأرض فانه يحجب لخارجها فقط ولاينفع العمق اصلا وأما اذا انحدر بهدوء قليلا قليلا فانه ليس يبلغ الى درجة الأرض فقط ولكنه ينبعث ايضا الى اعماقها كأنه من شرايين خفية ويفعم بواطنها رطوبة ويصيرها حسنة القبول لاتباع الأثمار ·

هكذا نحن نقدم لنفوسكم هذا المطر الروحانى يسيرا يسيرا بهدوء وسكون لأن سحابات الكتب فروحية هى · وأما الأقوال والمعانى فانها افضل من مطر غزير ولذا كم السبب نقدم لكم المطر الروحانى شيئا فشيئا لكيما يبلغ ما أقوله الى اقاصى نفوسكم ومع ذلك فهذا يوم رابع لنا جائلين فى جملة هذا المقال ولم نتعده بعد والأفضل لنا ان نحتفر أولا محلا صغيرا ثم ننحدر قليلا قليلا الى العمق ونجد الكنز المطلوب من اننا نبحث فى اسطح أراض كثيرة باطلا وعبثا · وانى لعارف بأن كثيرين منكم يتذمرون على لأجل اسهابى فى الخطاب وأما أنا لا تعنينى دمدمتهم بل تهمنى منفعتكم فقط فالذين يقتدرون منكم أن يسعوا سعيا أشد اسراعا من الاخوة الواهنى القوى فليصبروا عليهم ويحتملون ضعفهم لأنهم لا يستطيعون البلوغ الى نشاط أولئك ولهذا يقول بولس انه لا يجب أن نحث الضعفاء قبل الوقتنحن الأقوياء اذ ليس لهم حينئذ قدرة على ذلك ولكن نحن الأقوياء يجب علينا ان نحتمل ضعف الذين لا قوة لهم ونحن لا يهمنا التظاهر جملة كافية بل اننا تعنينا منفعتكم فقط فلهذا نسهب فى بواطن المعانى وانى قد كنت قلت لكم فى اليوم الأول انه لا يجب أن نسمع معانى المسطورات علىالاطلاق حين تكلمنا فى عنوان الهيكل واوضحنا حكمة بولس ذاك الغريب الذى كان واقفا فى مشاحنة الأعداء وقدمها الى من يلوز به ففى هذا انتهى تعليمنا بأسره فى اليوم الأول · ثم بعده فى اليوم الثانى التمسنا ان نعرف من هو كاتب هذا الكتاب فوجدنا بنعمة الله انه لوقا الانجيلى واوضحنا لكم الموضوع بادلة كثيرة بعضها بالبرهان وبعضها باعمق من ذلك لأننى قد علمت بأن كثيرين من الذين سمعوا المقالات الأخيرة ام يتبعوها فلا نمل من هذا القبيل ولا نتهاون بالتجاسر على التعمق بأدق منها ·

اما المعانى الظاهرة فى للسذج القاصر فهمهم اما العميقة فهى انفع للذين يتأملون بحذاقة لأن المائدة يجب ان تكون متلونة الأنواع بما ان شهوة المدعوين هى متنوعة ففى اليوم الأول تكلمنا لأجل العنوان وفى اليوم

الثاني من أجل الذي كتب الـكتاب وفي اليوم الثالث بالأمس تكلمنا عن بدء الـكتاب وأوضحنا ما يوافق السامعين والبعض عن الأفعـال والبعض عن العجائب والبعض عن السيرة والبعض عن الآيات والعلامات والقوات وكم مقدار كل واحد منها وكيف أن البعض يسبب بذاته ملكا وأن الذي لا يمتلك معونة من الأفعـال فيطرح خارج الأبواب فيجب اليوم أن نتكلم ضرورة على بقية العنوان ونظهر ما هو معنى اسم الرسل لأن هذا الاسم ليس بساذج لـكنه منذ البـدء هو تكنية عظيمة للتقـدم الروحاني للتقدم العلوى لـكن انهضوا الـكون ولو وجد في العـالم رياسات كثيرة الا أنها ليست بهذا المقام نفسه لأن البعض أعظم والبعض أحقر فأولهم رأس عسس المـدينة والأعلى منه المتقدم على القبيلة وبعده رئيس أعظم ثم مقدم الجيوش الذي هو الوالي وتوجد رياسة أعلا من هؤلاء وهي رئاسةالوزارة وكما أنجميع هذهالرياسات ليست في مقام واحد وهكذا الرياسات الروحية فكثيرة هي وليست جميعها بوظيفة واحدة بل أعظم الوظائف بأسرها هي الرياسة فيجب علينا أن نقتادكم من الأمور الحسية الى المعاني العقلية ·

لأن والمسيح هكذا صنع لما فاوض من أجل الروح فانه ذكر ماء وقال « من يشرب هذا المـاء يعطش أيضا فأما من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا لا يعطش الى الأبد » أرأيته كيف من الأشياء الحسية يقتاد الى العقلية ونحن فنصنع هكذا فاننا نصعد من أسفل الى العـلا لـكيما نصـير المقال أشد ايضاحا ولذلك لـا تكلمنا عن الرياسة لم نذكر رياسة روحية لـكن حسـية لـكي من هـذه نقتادكم الى تلك أسمعتم كيف عددنا لـكم الرياسات الوقتية وكيف أن البعض أعظم والبعض أحقر وكيف أن رياسة الوزارة موضـوعة كهام ورأس للـكافة فلننظر اذا في الرياسات الروحية فالرياسة الروحية هي بدء النبوة وتوجد رياسة أخرى وهي انجيلية وهي للراعي وهي للمعلم وهي مواهب الأشفية هي ترجمة اللغـات فجميع هذه الأسماء تخص المواهب وأما أمور الرياسات والسلطات فالنبي رئيس هو وعندنا أن الروح الذي يحركه رئيس هو وعندنا أن الراعي أو المعلم هو رئيس روحاني ولـكن أعظم هؤلاء جميعهم الرياسة الرسولية لأن الرسول امام كافة هؤلاء ·

وكما أن الوزير في الرياسات الحسية فهكذا والرسول له التقـدم في الروحانيات وأن قيل من أين يتضح ذلك فلنسمع تعداد بولس للرياسات لأنه يضع في المحل الأعلى الرياسة الرسولية حيث يقول ان الله قد رتب قوما في الـكنيسة فأولا رسلا ثانيا أنبياء ثالثا معلمين ورعاة ثم مواهب الشفاءأرأيت

هام الرياسة الرسولية أشهدت كيف أن الرسول جالس فى العلا وليس أحد يفوقه لأنه يقول أولا رسلا ثانيا أنبياء ثالثا معلمين ورعاة ثم مواهب الشفاء معاضد النصر سياسات أجنــاس اللغات · وليست الرياسة الرسولية تفوق الجميع فقط ولــكنها هى الأساس والقاعدة وكما أن الرأس موضوع فى أعلا جميع البدن وليس هو بدء الجسد ورياسته فقط بل واصله لــكافة الأعصاب الملتفة والمحيطة بالبــدن منشأها منه وهى تنبت من الرأس وتقتبل موازرة الروح وهكذا تتــدبر جميع الحيوانات فعلى هــذا النمط هى الرسالة لأنها ليست موضوعة كرياسة وسلطان بقيــة المواهب فقط بل وتتضمن فى ذاتها كافة الأصول فالنبى لا يستطيع أن يكون رسولا وأما الرسول فبالضرورة هو نبى ويمتلك مواهب الشفاء وأجنــاس اللغات وترجمتها · فلهــذا هو أصل وبدء المواهب · ولاثبــات ذلك فأقدم لــكم بولس شاهدا ولــكن ضروريا لنا أن نقــدم أولا · أيما هى أجناس اللغــات لاظهار الروح وبما أنهم فى ذلك الحق كانوا ضعفاء ولميكن يمكنهم أنيشاهدوا المواهبالعقلية بأعين الجسد· لذلك كانوا يعطونحسية لاظهار العقلية وللحين كان المعتمد ينطق بلغته ولغة الهنــد والفرس والأعاجم حتى يعلم غير المؤمنين أنه قد أخذ الروح القدس· وكانت الاشارة حسية · أعنى الصــوت · لأنهم كانوا يسمعونهــا بحواس الجسد وأما نعمة الروح العقلية غير الملحوظة · هى التى كانت تجعلالاشارة الحسية ظاهرة للــكافة وهذه الآية فكانت تدعى أجناس اللغات · فانظر ان لسانا واحدا طبيعيا كان ينطق بلغات متنوعة بواسطة النعمة فــكنت تبصر انسانا واحدا يمتلك بالعدد بواسطة أنواع النعم أفواها متنوعة · وألسن متباينة فلننظر اذا كيف أن الرسول يمتلك هذه الموهبة وبقيتها أجمع · لأنه يقول هكذا « اننى افضل من جميعكم أتكلم باللغــات » أشاهــدت كيف أنه يحوى أجناس اللغات وليس هو فقط لــكن وجميع المؤمنين لأنه لم يقل « أننى اتكلم باللغات فقط » · بل « وأفضل من جميعكم اتكلم باللغات » وأما النبوة التى كانت له فيوضحها من هذا الــكلام قائلا هكذا « أما الروح فيقول جهرا ان فى الأزمنة الأخيرة تنصب أوقات صعبة » فقوله فى الأزمنة الأخيرة هى « نبوة » · وهذا ظاهر للــكافة كذا وقوله أيضــا « اعلموا أنه فى الأيام الأخيرة تنصب أوقات صعبة » ثم قوله « وأيضا أقول لــكم بقول الرب أننا نحن الأحياء الذين نبقى الى مجىء الرب لن نسبق الراقدين » وهذه نبوة أيضا · أشاهدت كيف أنه يمتلك النبوة وأجناس اللغات ؟

الجزء الثالث ـ مقالات للقديس يوحنا فم الذهب